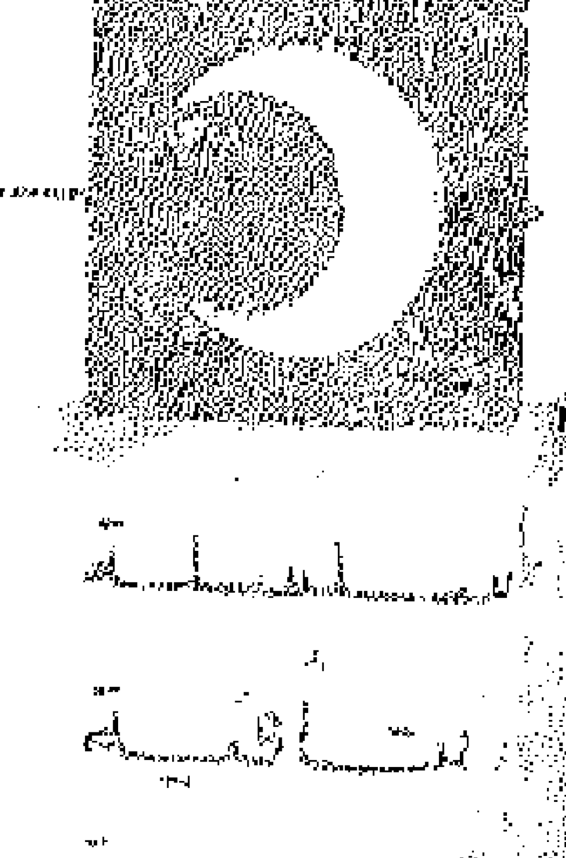


سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

بين الوفاء والفداء

٥٩١

الدكتور أحمد الشربا

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: فكرى أباظة • نائب رئيس مجلس الإدارة: صالح جودت

رئيس التحرير: صالح جودت

المشرف الفنى: جمال قطب

سكرتير التحرير: عايدة صياد

العدد ٢٩١ – صفر ١٣٩٥ – مارس ١٩٧٥

No. 291 — March 1975

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٥ر٢ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى المسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنـــان جمـال قطب

الدكتور أحمد الشرباصي

بين الوفاء والفداء

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمـــــــد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورســله ، وعلى خاتمهم ســيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، واتباعه وأحبــابه ، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين .

وأستفتح بالذى هو خير : « ربنــا عليك توكلنــا ، واليك أنبنــا ، واليك المصير » .

قبس من كتاب الله

« أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كما هو اعمى ؟ انما يتذكر أولو الالباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » .

« سورة الرعد »

تصدير

هناك بين الوفاء والفداء خيط رقيق ، وثيق عميق ، يربط بين هذين المعنيين الجليلين أوثق رباط .

فالوفاء كلمة جليلة المدلول ، فيها معنى التزام الطريق ، والحفظ للعهد ، والثبات على الاعتقاد .

والفداء كلمة ثقيلة التبعات ، لان مفهوم الفداء هو التضحية بكل غال ونفيس ، حتى الحياة ، فى سبيل التوفية بالعهد ، والصدق فى الوعد .

وحينما تحدثت فى الجزء الثانى من كتابى « أخلاق القرآن » ذلك الحديث الذى انفسح واتسع عن فضيلة « الوفاء » ، ذكرت انه حسب الوفاء شرفا وتمجيدا ان الله تبارك وتعالى جعله صفة من صفاته ، فقال : « ومن أوفى بعهده من الله » ؟ ...

كما أثنى الحق جل جلاله على أبى الانبياء وخليل الرحمن « ابراهيم » بفضيلة الوفاء ، فقال : « وابراهيم الذى وفى » .

ووعد سبحانه بعظيم الاجر وجزيل الثواب لمن جاهد نفسه حتى لازم شرعة الوفاء ، فقال : « بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين » . وقال : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » .

والامم التى تبعث نهضتها ، وتحقق عزتها ، محتاجة دائما الى هذين الامرين العظيمين : الوفاء والفداء ، ليكون الوفاء تاج قيمها ومبادئها ، وليكون الفداء سنتها وشعارها . وامتنا الماضية فى مسيرتها نحو استرداد مكانتها ، واستيفاء كرامتها ، محتاجة أكثر من غيرها الى هاتين الفضيلتين ، مع احكام الربط بينهما ، ليكون أحدهما اعتقادا ، والآخر استعدادا ، فيثمر ذلك الالتحام ثمرته ، من حياة أفضل ومسيرة اكرم .

واذا كانت مقتضيات حياتنا النضالية الحاضرة المستمرة ، تتطلب ذلك وتلح فيه ، فان من فضل الله علينا ان مواريثنا الروحية والتاريخية تنطوى على أمثلة رائعة لحسن الجمع بين الوفاء والفداء .

وهذه طائفة من تلك الامثلة ، ظلت عبر القرون مجهولة أو مطوية ، لا يقف عليها ، أو يتطلع اليها ، أو يتأمل فيها ، أكثر أبناء هذه الامة .

ولقد طمح القلم اليوم – كما طمح من قبل أكثر من مرة – أن تكون تجلية هذه الامثلة المجهولة من قبل ، معوانا على تثبيت عقيدة الوفاء ، واذكاء روح الفداء ، فى عصر استبان فيه لكل ذى عينين ان طريقنا لا يعتدل ولا يستقيم ، الا اذا كان على جانبيه رائدان أمينان ، هما العلم والايمان .

« وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم اجمعين » .

د : احمد الشرباصي

المجاهد الحميد الشهيد

النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري

من نعم الله الكبرى على الانسان أن يوفقه الى الكلم الطيب الصادق يقوله ويصدع به ، ويكون معه العمل الصالح يلازمه ويصاحبه ، لان المنطق الكريم عنوان التفكير السليم والاعتقاد القويم .

ولعل هذا بعض ما يشير اليه الحق جل جلاله حينما يصف الفائزين من عباده بأنهم « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . فالجهر المخلص بعقيدة التوحيد ترجمان لما فى القلب من ايمان وطيد ، والاستقامة على الطريق تطبيق بصير لما آمن به الانسان فى قلبه ، وترجم عنه بلسانه ، ولهذا أوجز رسول الله صلى الله عليه وسلم النصيحة لمن جاءه يطلبها فقال له : يا رسول الله ، قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك .

فأجابه الرسول : قل آمنت بالله ثم استقم .

ومن هنا قال أئمتنا ان الأيمان ينهض على ثلاث دعائم ، هى الاعتقاد بالجنان ، والاقرار باللسان ، والاداء للأركان .

واذا كان الكلام سهلا ميسورا ، فانه لا يقام له عند العقلاء ميزان الا اذا كان معه أو من ورائه تطبيق وسلوك والتزام ، وهذا التطبيق يبدأ فى منطق الدين

بالاساس الاول ، وهو المحافظة على أداء الشعائر والعبادات ، ثم يقترن ذلك بحسن المعاملة مع الناس فى مختلف الحالات ، ولا يزال الانسان يحيا عابدا صالحا مصلحا ، مجاهدا مناضلا فاضلا ، مقبلا على ساحات الوفاء والفداء ، بلا تردد أو ابطاء ، واثقا بما عند الله أكثر من وثوقه بما بين يديه ، راضيا بما يسوقه الله تعالى اليه ، مرددا شعار المجاهدين المؤمنين : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، حتى يلقى الله وهو على سواء الطريق .

وهكذا كان الاخيار الابرار من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام : نظروا فاعتبروا ، وعرفوا فاغترفوا ، وسلكوا فملكوا ، وعملوا فحققوا ، وجاهدوا فصدقوا ، ومضوا الى ربهم مقبلين على خير الثواب لديه ، فنعم عقبى الدار : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

وهذا واحد من هؤلاء :

انه الصحابى ابن الصحابى وابن الصحابية ، المجاهد الحميد الشهيد ، أبو عبد الله النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس (١) الانصارى (٢) .

---

(١) بالجيم المضمومة ، وقيل : خلاس ــ بفتح الخاء وتشديد اللام « تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ١٢٩ » .

(٢) الى النعمان تنسب بلدة « معرة النعمان » فى سورية ، بلد أبى العلاء المعرى ، مر بها النعمان ، فمات له ولد عندها ، فدفنه فيها

ووالد النعمان صحابى جليل ، ومجاهد شهيد ، بايع بيعة العقبة الثانية ، وشهد غزوتى بدر وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذاق نعمة الشهادة سنة اثنتى عشرة فى غزوة عين التمر.

وأم النعمان هى عمرة بنت رواحة الصحابية الفاضلة ، التى أسلمت وبايعت الرسول ، وهى أخت الصحابى البطل ، المجاهد الشهيد : عبد الله بن رواحة أحد أبطال غزوة « مؤتة » (١) .

ولقد ولد النعمان فى جمادى الاولى من السنة الثانية للهجرة ، وكان أول مولود من الانصار بعد الهجرة .

يروى انه ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وقيل فى مولده غير ذلك ، ولكن ما ذكرناه هو الاصح والاشهر (٢) . وجاء فى كتاب الاغانى فى شأن النعمان : « يقال ان النعمان بن بشير أول مولود ولد بالمدينة بعد قدوم النبى صلى الله عليه وسلم اياها ، وقد قيل ذلك فى عبد الله بن الزبير ، الا ان النعمان أول مولود ولد بعد مقدمه عليه السلام من الانصار» (٣)

وعقب مولد النعمان جاءت به أمه تحمله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه « أى دلك حنكه بتمر مضغه » ، وبشر امه بأنه سيعيش حميداً ، ويقتل شهيداً ، ويدخل الجنة (٤) .

فنسبت اليه . انظر ماكتبه ياقوت فى معجم البلدان ج ٥ ص ١٥٦ طبعة بيروت .

(١) تحدثت عن بطولته فى كتابى « الفداء فى الاسلام »

(٢) أنظر « الفداء فى الاسلام » ص ١٢٢ — ١٣٢ .

(٣) الاغانى ج ١٦ ص ٢٩ طبعة دار الكتب المصرية .

(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٤ .

وببركة هـذا الدعاء عاش النعمان فى خير وسعة ، وكتب الله له حسن الخاتمة بالشهادة .

وكان النعمان بن بشـير رضى الله عنـه رجلا كريما جوادا ، شاعرا قوالا (١) ، أميرا خطيبـا . يقول عنه سماك بن حرب : « كان النعمان من أخطب من سمعت » .

وكان اذا خطب على المنبر اكثر من قراءة القرآن الكريم ، وأنعم بذلك من طريقة ، فان القرآن هو الرائد والقائد : « ان هـذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

وللنعمان بن بشير ديوان شعر مطبوع . وقد نشـأ فى أسرة يقول أفرادها الشعر ، ولذلك جاء عنه فى كتاب الاغانى هذه العبارة :

« والنعمان بن بشير هو من المعروفين فى الشـعر سـلفا وخلفـا ، جده شـاعر ، وأبوه شاعر ، وعمـه شـاعر ، وهو شاعر ، وأولاده وأولاد أولاده شعراء» . ومن أولاده ولد اسمه : عبد الله ، كان شاعرا ، وولد آخر اسمه ابان ، كان شـاعرا مكثرا . وله ولد ثالث اسمه يزيد ، كان شاعرا مكثرا مجيدا ، وأخوه ابراهيم ابن بشير بن سعد ، كان شـاعرا مكثرا ، وله ابنـة تسمى « حميدة » كانت شاعرة ذات لسان (٢) .

ولقـد وقف النعمان على المنبر يوما ـ كما قص الاصبهانى ـ فقال للناس : أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ قالوا : لا . قال : مثل الضبع والضب والثعلب ، فان الضبع والثعلب أتيا الضب فى وجاره ، فنادياه : يا أبا الحسل .

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٣٠ .
(٢) الاغانى ج ١٦ ص ٤٣ و ٥١ و ٥٢ .

فقال : سميعا دعوتما .
قالا : أتيناك لتحكم بيننا .
قال : فى بيته يؤتى الحكم .
قالت الضبع : انى حللت عيبتى .
قال : فعل الحرة فعلت .
قالت : فلقطت تمرة .
قال : طيبا لقطت .
قالت : فأكلها الثعلب .

قال : لنفسه نظر .
قالت : فلطمته .
قال : بجرمه .
قالت : فلطمنى .

قال : حر انتصر .
قالت : فاقض بيننا .
قال : قد فعلت .

***

ولكن هذا الرجل الشاعر ، الخطيب ، الجوال فى مناحى الكلام ، الذى يستجيب فيه أحيانا لتوقد مشاعره ، أو شجون نفسه ، أو هوى قلبه ، كان رجلا عمليا نضاليا ، وقد يدلنا على ذلك انه استجاب لدعوة الاسلام وهو ما زال فى باكورة فتوته ، ثم أقبل عقب ذلك مع زميل له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوانه فى أن يخرجا معه الى الجهاد ، ولكن النبى استصغرهما وردهما (١) .

وهذا يدلنا على أن النعمان لم يكن رجل كلام

(١) الاغانى ، ح ١٦ ص ٢٨ .

يشققه وينمقه فحسب ، بل كان مع هـذا أو قبله رجل ميـدان ، يريد ـ حتى قبل الاوان ـ أن يندفع الى معترك النضـال والطعان ، ولذلك لم يكن غريبـا بعد هـذا أن نشـهد النعمان بن بشير وهو يشترك فى كثير من المعارك والحروب .

وكأن شخصية النعمان قد أعجبت أباه ، فأراد أن يخصه بشيء من ماله دون اخوته ، ولـكن أم النعمان رفضت ذلك ، حتى يوافق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا تحرز منها واحتياط .

يقول النعمان فى ذلك : اعطانى ابى عطية ، فقالت أمى عمرة لأبى : لا أرضى حتى تشهـد رسـول الله صلى الله عليه وسلم . فأتى أبى رسـول الله ، فقال له :

يارسول الله ، ابنى من عمرة أعطيته عطية ، فأمرتنى أن أشـهدك . فقال له النبى : أأعطيت كل ولدك مثل هـذا ؟ قال : لا . قال النبى : فاتقوا الله واعـدلوا بين أولادكم .

ولم يغضب النعمان من ذلك ولم يتألم ، لانه يؤمن بقول الله عز من قائل : « ما عنـدكم ينفـد وما عنـد الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » .

واذا كان فى النـاس أناس كثيرون يعتزون بأنسابهم، ويفخرون بأحسابهم ، ويتباهون بآبائهم وأجدادهم . فقـد كان النعمان بن بشير يعتز اعتزازا كبيرا بلقب « الانصـار » ، لانه اللقب الـكريم الذى يشـير الى انهم نصروا الاسلام ، وأعزوا رسـول الله عليه الصلاة والسلام .

وكان الأنصار يحبون دائما أن يصفهم الواصف بوصف « الانصار » ، وأن ينادى عليهم المنادى باسم « الانصار » ، لا باسم قبائلهم أو عشائرهم ، وحق لهم ذلك ، فهذا هو تعبير القرآن الكريم عنهم ، فقد قال فى سورة التوبة : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوزالعظيم » .

وقال أيضا : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم » .

ولقد أراد بعض الاشخاص أن ينادى على الانصار بأسماء قبائلهم ، فلم يستجيبوا له ، وفى طليعتهم النعمان ، وحينما نادى عليهم باسم « الانصار » أجابوا ، وفى ذلك قال النعمان :

يا سعد ، لا تعد النداء فما لنا
نسب نجيب به سوى « الانصار »
نسب تخيره الاله لقومنا
أثقل به نسبا على الكفار

وتقلبت الايام والاحداث بالنعمان بن بشير، وطوحت به الدنيا ذات اليمين وذات الشمال : بايع لعبد الله ابن الزبير ، واستعمله معاوية على حمص ، ثم على الكوفة ، واستعمله عليهما بعده يزيد بن معاوية ، وتولى القضاء بدمشق .

وظل يجمع بين روعة المقال ، وروعة الفعال ، وروعة النضال ، وهو حامل نفسه ــ قدر طاقته ــ على

سواء السبيل ، يخاف المعصية ويخشى العقاب ، ويردد قوله : « أن الهلكة كل الهلكة أن تعمل السيئات فى زمن البلاء » . ويحاول ما وسعته المحاولة أن يربط قلبه بالله ؛ لانه الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن واقع الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، الا وان لكل ملك حمى ، الا وان حمى الله محارمه ، الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهى القلب » .

وقد روى النعمان الحديث عن أبيه ، وروى أكثر من مائة حديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وقتل النعمان شهيدا بالشام ، فى قرية من قرى حمص ، فى ذى الحجة سنة أربع وستين ، وقيل سنة ستين ، وقيل سنة خمس وستين . قتله أعداؤه فى قرية يقال لها « بيرين » ، قتله رجل اسمه خالد ابن خلى المازنى الكلاعى (١) ، وبعد أن قتله أعداؤه قطعوا رأسه ، وذهبوا به فألقوا الرأس فى حجر زوجته!

وقد رثته بنته بأبيات قالت فيها :

ليت ابن مرنة وابنه
كانوا لقتلك واقيه
وبنى أمية كلهم
لم يبق منهم باقيه

(١) انظر معظم البلدان ج ١ ص ٥٢٦ . والاعلام ، ج ٩ ص ٤ . والبداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٤ .

جاء البـــــريد بقتـــــله
يا للـــــكلاب العـــاويه
يســـــتفتحون برأســـــه
دارت عليـــــهم فانيـــــه
فلأبكين ســـــــــريرة
ولأبكين علانيـــــــــه
ولأبكينـــــك ما حييت
مع الســـــباع العـــاويه

سلام على المجاهد الحميد الشـــهيد : النعمان بن بشير ، ورضوان الله تبارك وتعالى عليه .

الشهيد الحامل على الصف

هشام بن عامر بن أمية الأنصاري

تمر فى تاريخ الامم أوقات عصيبة رهيبة ، تحتاج فيها الى أفراد أفذاذ من أبنائها ، يهبهم الله قوة الحس وسمو النفس ، وصدق الايمان وعمق اليقين، وروح الاقدام وروعة الاقتحام ، فيقومون بأعمال بطولية فدائية ـ أو كما يعبر أبناء العصر : بأعمال انتحارية ـ يردون بها على أمتهم كرامتها وسمعتها ، ويذكرون الناس بأن الايمان اذا عمر قلبا ، وتمكن منه ، صار الموت عند صاحبه ـ فى سبيل الله ـ أحلى وأعلى وأغلى من الحياة فى ظل الضيم والهوان .

وفى تاريخ أمتنا المؤمنة نماذج كثيرة لهؤلاء الباذلين المضحين المفتدين ، يمر بالخاطر منهم الآن : الحسين أبو الشهداء ، بطل كربلاء ، والمجاهد المقدام : أبوعبيد ابن مسعود الثقفى صاحب موقعة الجسر، وعبد القادر الحسينى شهيد معركة القدس فى فلسطين . أين الآن فلسطين ياجموع العرب والمسلمين ؟ ... ردها الله على العرب والمسلمين .

وما أشد حاجة أمتنا الآن الى الاهتداء والاقتداء بمدرسة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، التى خرجت الكثيرين ممن باعوا أنفسهم لله ربهم ، وبادروا الى مصارعهم فى مواطن الحق ، لايريدون عرضا ولا طمعا

ولا متاعا ، ولا يحسبون حساب الحياة والموت ، بل يريدون فقط ابتغاء وجه الله العلى الكبير .

***

وهذا واحد من هؤلاء ...

انه البطل الاسلامى ، الصحابى الجليل : هشام ابن عامر بن أمية بن زيد الانصارى ، الذى كان يسمى فى الجاهلية باسم : « شهاب » ، فلما دخل فى الاسلام غير النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ اسمه الى « هشام » (١) .

وقد كان هشام من سلالة مؤمنين مجاهدين ، فأبوه عامر بن أمية اشترك فى غزوة بدر ، وانعم بما لاهل بدر من فضل وذكر ، وقدر وأجر . ثم اشترك عامر فى غزوة أحد العصيبة ، ونال فيها نعمة الشهادة (٢) ، بعد أن أبلى فى سبيل الله بلاء حسنا .

وكان الشهداء يوم أحد كثيرين ، والأحياء من المجاهدين فيها قد أصيبوا بجراح وطعنات ، حتى ضعفوا عن أن يحفروا لكل شهيد قبرا مستقلا ، فسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام : ماذا يصنعون؟

فقال لهم : احفروا وأوسعوا وأعمقوا ، واجعلوا الرجلين والثلاثة فى القبر الواحد .

فسألوه : ومن نقدم منهم ؟

فقال : قدموا أكثرهم قرآنا .

قال هشام بن عامر وهو يروى الخبر : فقدموا أبى بين يدى اثنين من الانصار (٣) .

---

(١) الاصابة ، ج ٣ ص ٥٧٣ .
(٢) الاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ٣ ص ٩ .
(٣) أسد الغابة ، ج ٥ ص ٤٠٣ .

وفى رواية ان الرسـول كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحـد فى ثوب واحد ، ثم يقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟.. فاذا أشـير الى أحدهما قدمه فى الدفن ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة (١) .

ونفهم من رواية هشام السـابقة ان والده كان حريصا على تلاوة القرآن الـكريم وحفظه ، ومن جعل القرآن سميره وأميره وظهيره فقد فاز فوزا عظيما .

ولذلك حق للسيدة عائشة رضى الله عنها أن تقول عن والد هشام : « نعم المرء كان عامر » !

ولقد دخل هشام على السيـدة عائشة بعد استشهاد أبيه ، فقالت له : « نعم المرء كان أبوك عامر » (٢) .

***

ونشأ هشـــام بن عامر شجاعا مقداما ، مضحيا جسورا ، وطالت به حيـاة الـكفاح والنضـال ، حتى تألق نجمه ، ومما يدل على ذلك أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه اختار أبا موسى الاشـعرى ليكون قائد الجيش ، وقال له :

يا أبا موسى ، انى مستعملك ، وانى أبعثك الى أرض قد باض فيها الشيطان وفرخ ، فالزم ما تعرفه ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك ! ..

فقال له أبو موسى : يا أمير المؤمنين ، أعنى بعـدة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والانصار ، فانى وجدتهم فى هـذه الامة وهـذه الاعمال كالملح لا يصلح الطعام الا به .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ٨١ و ٨٢ .
(٢) الاستيعاب ، ج ٣ ص ٦ .

فقال له عمر : فاستعن بمن أحببت .

فاستعان أبو موسى بتسعة وعشرين رجلا ، كان منهم هشام بن عامر (١) .

***

وفى سنة ثمان وعشرين للهجرة قاد هشام بن عامر جيشا فتح به مدينة « اصطخر » فى بلاد فارس، وهى — كما يذكر ياقوت — من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها ، ومن أقدم المدن فيها وأشهرها ، وبينها وبين شيراز اثنا عشر فرسخا ، وكانت فيها قبل الاسلام خزائن الملوك (٢) .

وبعد ذلك بحين اشترك هشام فى معركة القسطنطينية عاصمة ديار الروم يومئذ ، وهى « اصطنبول » (٣) ، وكان سمك سورها واحدا وعشرين ذراعا .

وتطلع هشام الى صف الاعداء الواقف فى وجه المجاهدين المسلمين ، وهم بحاجة الى اقتحامه واحداث ثغرة فيه ، فاندفع نحوه هشام بلا ارعواء ولا ابطاء ، وقذف بنفسه على الصف ، وأخذ يجاهد ويجالد ، حتى أحدث فيه الثغرة المرجوة ، ودفع ثمنها ، وكان الثمن حياته ، حيث نال نعمة الشهادة ، ومضى الى ربه عظيما كريما ، بعد أن أدى واجبه الجهادى خير الاداء ، وفتح أمام رفاقه طريق الظفر والانتصار .

وخيل الى بعض الناس أن هذا التصرف من هشام فيه مخالفة لامر الله عز وجل ، لانه يقول فى سورة

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٧١ .

(٢) معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٢١ طبعة بيروت .

(٣) كذلك رسمها ياقوت . انظر كتابى « الفداء فى الاسلام » ص ١٦٨ . الطبعة الثانية .

البقرة : « وانفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

وقال هذا البعض : يرحم الله هشام بن عامر، لقد القى بيده الى التهلكة .

وسمع هذا التعليق أبو هريرة رضى الله عنه فاستنكره وقال : لا والله ، ما القى هشام بيده الى التهلكة ، ولكنه التمس قول الله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » (١) .

وكان أبو هريرة على حق فى هذا الاستنكار ، لان الآية الاولى السابقة تحث على الانفاق فى سبيل الله للاعداد والاستعداد ، وتحذر الوقوع فى الهلاك والخسران اذا كان هناك امتناع عن هذا الانفاق ، فكأن القاء الايدى الى التهلكة يراد به ما يعقب البخل والشح من خسار وبوار .

ولذلك ورد عن ابن عباس انه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج الى الجهاد ، قام اليه اناس من الاعراب حاضرون بالمدينة فقالوا : بماذا نتجهز ؟ فوالله ما لنا زاد ، ولا يطعمنا أحد . فنزل قوله تعالى : « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

أى تصدقوا يا أهل الميسرة فى سبيل الله وطاعته ، ولا تمسكوا بأيديكم عن الانفاق على الضعفاء والفقراء فتهلكوا ، لانهم اذا تخلفوا عنكم فى الجهاد غلبكم

(١) انظر تفسير الطبرى ، ج ٢ ص ٣٢١ . وتفسير القرطبى ، ج ٣ ص ٢١ . والاصابة ج ٣ ص ٥٧٣ .

العدو فتهلكوا (١) .

وتعرض السدى لتفسير قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » فقال : « أنفق ولو عقالا ، ولا تلق بيدك الى التهلكة فتقول : ليس عندى شىء » .

وكذلك قال حذيفة وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجمهور الناس :

المعنى لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بأن تتركوا النفقة فى سبيل الله وتخافوا العيلة « الفقر » فيقول الرجل: ليس عندى ما أنفقه .

وقال ابن عباس : أنفق فى سبيل الله ، وان لم يكن لك الا سهم أو مشقص ، أى نصل عريض ، أو سهم له نصل يرمى به (٢) .

وتعرض الاستاذ الامام محمد عبده لتفسير الآية ، فاستحسن ما ذكره تفسير الجلالين من أن المراد بالانفاق فى سبيل الله هو الانفاق فى الجهاد والطاعة ، وان التهلكة هى الامساك والامتناع عن الجهاد ، واستنكر أن يكون المراد : لا تقاتلوا الا حيث يغلب على ظنكم النصر وعدم الهزيمة .

كما ذكر أن تفسير « التهلكة » هنا بالاسراف لايلتئم مع الاسلوب قبله وبعده .

ولكن الذى يلتئم ويناسب هو : اذا لم تبذلوا فى سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد ، فقد أهلكتم أنفسكم (٣) .

---

(١) تفسير القرطبى ، ج ٢ ص ٣٦٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٢١٤ . الطبعة الثالثة .

وأما الآية الثانية السابقة : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » فهى حث رائع على أن يبيع المسلم نفسه فى سبيل رضا ربه ، ولا يتردد فى التضحية بها من أجل خالقه ، ولذلك جاء فى تفسير المنار :

« ان هـذا البيع لا يتحقق الا اذا كان المؤمن يجود بنفسه وبماله فى سبيل الله اذا مست الحاجة لذلك ، فكيف اذا ألجأت اليه الضرورة كجهاد أعداء الملة والامة عنـد الاعتـداء عليهما ، أو الاستيلاء على شىء من دار الاسـلام ، وحينئـذ يكون فرضـا عينيا على جميـع الافراد ، فمن قدر على الجهاد بنفسه وجب عليه ، ومن قدر عليه بماله وجب عليه ، ومن قدر عليه بهما معـا وجب عليه .

وسبيل الله هى الطريق الموصلة الى مرضاته ، وهى التى يحفظ بها دينـه ، ويصلح بها حال عباده . ومعنى هـذا انه لايكتفى من المؤمن أن يكسب الحلال، ويتمتع بالحلال ، وينفع نفسه ولا يضر غيره ، وأن يصـلى ويصوم ، لان كل هـذا يعمله لنفسه خاصة ، بل يجب أن يكون وجوده أوسع ، وعمله أشمل وانفع ، فيساعد على نفع النـاس ودرء الخطر عنهم ، بحفظ الشريعة ، وتعزيز الامة بالمـال والاعمـال ، والدعوة الى الخير ، ومقاومة الشر ، ولو أفضى ذلك الى بذل روحه .

فان قصر فى واجب يتعلق بحفظ الملة وعزة الامة ، من غير عذر شرعى ، فقد آثر نفسه على مرضاة الله تعالى، وخرج من زمرة كملة المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى ، وكان أكبر اجراما ممن يقصر فى واجب لا يضر تقصيره فيه الا بنفسه . ذلك ان الحكمة فى تربيـة النفس بالاعمال الحسنة والاخلاق الفاضلة ، هى أن

ترتقي ويتسع وجودها فى الدنيـــــا ، فيعظم خيرها وينتفع النــاس بها ، وتكون فى الآخرة أهلا لجوار الله تعالى ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، الذين بذلوا انفسهم وأموالهم ، وجعلوا أكثر أعمــالهم خدمة للنــاس وسعيــا فى خيرهم ، فان الله تعالى لم يشتر أنفس المؤمنين من الحظوظ والشــــــــهوات الشخصية الخسيسة لاجل نفعه سبحانه ، أو دفع الضر عنه جل شأنه ، فهو غنى عن العالمين ، انما شرع هذا ليكون المؤمن باتساع وجوده وعموم نفعه ســــــيد الناس » (١) .

***

واذا كان البطل الاسلامى الجسور هشام بن عامر قد ألقى بنفسه على الصف وهو فرد ، والصف جمــاعة ، فقد ذكر القرطبى (٢) آراء العلمــاء فى اقتحام الرجــل الحرب ، وحمله على العــدو وحده ، فقالت طائفة : لابأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم ، اذا كان فيه قوة ، وكان لله بنية خالصة ، فان لم تكن فيه قوة فذلك من التهلــكة .

وقيل : اذا طلب الشهادة ، وخلصت النية ، فليحمل لان مقصوده واحد منهم .

وقيل : اما ان يحمل الرجل على مائة ، أو على جملة العسكر ، أو جماعة اللصــوص والمحاربين الخوارج ، فلذلك حالتان : ان علم وغلب على ظنه انه سيقتل من يحمل عليه وينجو فحسن ، وكذلك لو علم وغلب على ظنه انه مقتول ، ولــكنه سيحدث نكاية فى العدو ، أو

(١) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) الجامع لاحكام القرآن ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

سيؤثر أثرا ينتفع به المسلمون فجائز أيضا .

وقال محمد بن الحسن : لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده ، لم يكن بذلك باس، اذا كان يطمع فى نجاة أو نكاية فى العدو ، فان لم يكن كذلك فهو مكروه ، لانه عرض نفسه للتلف فى غير منفعة المسلمين .

فان كان قصده تجرئة المسلمين على الاعداء حتى يصنع المسلمون مثل صنيعه فلا يبعد جوازه ، لان فيه منفعة للمسلمين على بعض الوجوه .

وان كان قصده ارهاب العدو ، وليعلم صلابة المسلمين فى الدين ، فلا يبعد جوازه .

واذا كان فيه نفع للمسلمين ، فتلفت نفسه لاعزاز دين الله ، وتوهين الكفر ، فهو المقام الشريف الذى مدح الله به المؤمنين فى قوله : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

***

والموقف الرائع الذى وقفه هشام بن عامر فى معركة القسطنطينية يذكرنا بما رواه ابن جرير الطبرى ، وهو أن عمر رضوان الله عليه بعث جيشا ، فحاصروا أهل حصن ، وتقدم رجل من بجيلة ، فقاتل حتى قتل، فأكثر الناس فيه يقولون : ألقى بيده الى التهلكة .

فبلغ ذلك عمر، فقال : كذبوا ، أليس الله يقول : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله

رءوف بالعباد » (١) .

ويذكرنا أيضا بما روى عن أسلم بن عمران قال :

كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا الينا صفا عظيما من الروم ، فخرج اليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ، يلقى بيديه الى التهلكة .

فقام أبو أيوب الانصارى فقال : يا أيها الناس ، انكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل ، وانما أنزلت هذه الآية فينا معشر الانصار ، لما اعز الله الاسلام ، وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أموالنا قد ضاعت، وان الله قد أعز الاسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ؟

فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا : « وانفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » . فكانت التهلكة الاقامة على الأموال واصلاحها ، وتركنا الغزو . فما زال أبو أيوب شاخصا فى سبيل الله حتى دفن فى بلاد الروم (٢) .

***

ومع هذه الروح البطولية الجهادية ، والنزعة

---

(١) جامع البيان ، ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) تفسير القرطبى ، ج ٢ ص ٣٦١ . وهذا الخبر رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح ، وانظر تفاصيل البطولة عند أبى أيوب الانصارى فى كتابى « الفداء فى الاسلام » ص ١٦٤ — ١٧١ الطبعة الثانية .

الفدائية الاستشهادية ، عند هشام بن عامر لم ينس ـ عليه الرضوان ـ حق العلم والفقه عليه ، لانه يذكر قول ربه : « وقل رب زدنى علما » .

ويذكر قول رسولهعليه الصلاة والسلام : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

ولذلك عنى برواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه الحديث كثير من التابعين، مثل سعيد بن جبير ، وحميد بن هلال ، وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

سلام على المجاهد الشهيد القاذف بنفسه فى مواطن الهول ومواقف الصدق : هشام بن عامر الانصارى .

سلام عليه بين أهل الوفاء والفداء .

المجاهد الشهيد صاحب الجسر
أبو عبيد بن مسعود الثقفي

جرت عادة كثير من السلاطين فى قديم الزمان على تخليد آثارهم وتمجيد ذكرهم بشتى الطرق والوسائل، ومنهـا نقش أسمائهم على الآثار والمنشئات وغير ذلك ، ومنهـا نسبة المحامد والمفاخر الى ذواتهم زورا وبهتانا، ولكن هـذا التخليد لم يفلح فى كثير من الاحيـان ، بل لقد حدثنا التاريخ ان السلطان المتأخر فى الزمن كان يمحو آثار السلطان المتقدم عليه ، وكلما أقبل خلف من هؤلاء الجبابرة لعن سلفه ، والله ينتقم ممن يشاء بمن يشاء ، وهكذا لم ينجح ذاك التخليد ولا ذلك التمجيد، بل كان كل منهما عرضا زائلا وأمنية كاذبة ، لانه قام على البـاطل ، ولو ان شيئا من ذلك قام على كريم المبادىء أو خالد العقائد ، لاستقر ودام ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله زال وانفصل .

وها نحن أولاء ننظر فى تاريخ الاسـلام ، وفى سـيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، فنجد أبطالا كثيرين من صحابته ورجاله ، خلدت أسماؤهم ، وبقيت أنباؤهم ، بما قدموا فى سبيل الله والحق والخير ، وبما ضربوه من أمثلة الوفاء والفداء ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وهـــذا واحد منهم ، تعطرت صفحات التاريخ بسيرته وبطولته ، دون أن يعتمد فى ذلك على مال أو

نشب ، أو ضـخامة حسب ونسب ، بل باقدام على الموت والشهادة فى موطن الهول والبأس . ذلـكم هو الصحابى الجليل ، المجاهد الشهيـد ، صاحب الجسر: أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير الثقفى ، رضى الله عنه ، الذى كان من سادة الصحابة (١) والذى نال نعمة الاستشـهاد فى سـبيل الله ، فى موقعة من أخلد مواقع الجهاد ، وهى موقعة « الجسر » ، الذى ظـل وسيظل مقترنا باسم أبى عبيد ، فيقال : « جسر أبى عبيد » ، ويقال : « أبو عبيد صاحب الجسر » ، ويقال عن كل شـهيد من شهداء هـذه الموقعة : « استشهد يوم جسر أبى عبيد » (٢) .

فما نبأ هـذا الجسر ؟ .. وما قصة موقعته ؟ .. وما قصة صاحبه ؟ ..

لقد كان أبو عبيد من النماذج النـادرة فى الشجاعة والاقدام والقيـادة ، وكان لايبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، وكان لا يحب طريق الراحة والسلامة بقدر ما يحب طريق المصـاعب والمخاطر ، ولذلك ظل يناضـل ويقاتل فى سبيل دينـه وربه ، حتى تولى أمر المسلمين الخليفة الراشـــد الثانى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، فجهز أول جيش ليوجهه الى تحرير العراق من طغيان الفرس ، واختـــار عمر أبا عبيـد ليكون قائد هـذا الجيش وأميره ، وقد أتى أبو عبيد بالاعاجيب بعد الاعاجيب فى قتاله ونضاله ، مستشعرا روح القرآن المجيد القائل :

(١) كتاب العبر للذهبى ، ج ١ ص ١٧ .

(٢) الاستيعاب على الاصابة ، ج ٤ ص ١٢٤ . وأبو عبيـد هو والد صفية بنت ابى عبيد التى تزوجها الصحابى الجليـل عبد الله بن عمر رضـوان الله عليهما « الاعلام ، ج ٨ ص ٧٠ » .

« انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالـكم وانفسكم في سبيل الله ، ذلـكم خير لـكم ان كنتم تعلمون » .

وكان عمر قد ندب النــاس الى الخروج لقتال الفرس ، فتباطأ بعض الناس ، لان هذه الدعوة جاءت عقب وفاة أبى بكر الصديق ، والحزن لفقده ما زال متمكنا من النفوس ، وكان أول من استجاب هو أبوعبيد ابن مسعود الثقفى ، وتبعه فى الانتداب والاستجابة مجاهدان آخران ، هما سعد بن عبيد ، وسليط بن قيس ، ثم تتابع الناس بعد ذلك .

وهنا قال بعض النـاس لعمر : اجعل عليهم اميرا رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار .

فقال عمر : لا والله ، لا أفعل ، ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو ، فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع ، وأجاب الى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم الا أولهم انتدابا (أى استجابة) .

ثم دعا عمر أبا عبيد وولاه القيادة ، ثم قال لرفيقيه اللذين تبعاه قبل النـاس : أما انكما لو سبقتماه لوليتكما ، ولادركتما بها الى ما لـكما من القدمة . (أى السبق والتقدم فى الفضل) .

ثم التفت عمر الى المجاهدين ، وقال لهم :

« سيروا فى الارض التى وعدكم الله فى الـكتاب أن يورثكموها ، فانه قال : « ليظهره على الدين كله » . والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولى أهله مواريث الامم .

ثم هتف عمر : « « أين عباد الله الصالحون » (١)

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٤٤٥ .

وكان من خبر وقعة الجسر — كما يروى ياقوت — ان أبا بكر رضى الله عنه ، أمر خالد بن الوليد وهو بالعراق بالمسير الى الشام لنجدة المسلمين ، ويخلف بالعراق المثنى بن حارثة الشيبانى (١) ، فجمعت الفرس جموعها لمحاربة المسلمين ، وكان ابو بكر قد لحق بربه، فأرسل المثنى الى عمر من يخبره بذلك ، فندب عمر النـاس الى الخروج لقتال الفرس فهابوهم ، وكان اول من استجاب هو أبو عبيد بن مسعود الثقفى ، فقدموا الى بانقيا — وهى ناحيــة من نواحى الـكوفة بالعراق — فأمر أبو عبيد باقامة جسر على الفرات ، ويقال : بل كان الجسر قديما هناك لاهل الحيرة ، يعبرون عليه الى ضياعهم ، فأصلحه أبو عبيد (٢) .

وبدأت معركة الجسر فى شـهر شـعبان من السنة الثـالثة عشرة للهجرة (٣) ، وكانت الموقعـة على نهر الفرات ، عند نجران ، وهو موضع كان بين الـكوفة وواسط (٤) .

وكان أبو عبيـد قد خاض معركة ضـد الفرس بين الحيرة والقادسـية ، وشتت شملهم ، وقتـل الـكثير منهم ، وأسر كبيرهم « جاقان » ، ولم يطلق سراحـه حتى افتدى نفسه بفدية كانت لمصلحة المسلمين .

---

(١) انظر تفاصيل بطولته فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ٢٥٤ — ٢٥٨ .

(٢) معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٤٠ ، طبعة بيروت .

(٣) وفى رواية ان المعركة كانت فى السنة الرابعة عشرة للهجرة ، تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٤٤٢ . ولعلها بدأت سنة ثلاث عشـرة ، واستمرت بتوابعها الى سنة اربع عشرة .

(٤) العبر ، ج ١ ص ١٧ .

وحين أحس الفرس بمرارة الهزيمة جمعوا بزعامة «يزدجرد» جموعا ضخمة ، وتراءى الجمعان ، وتقابل الجيشان على شاطىء نهر الفرات (١) ، وبينهما ذلك الجسر المقام على النهر .

وأرسل الفرس الى أبي عبيد يستخفون بأمره فيقولون له كالهازئين : اما أن تعبروا الينا ، واما أن نعبر اليكم .

فقال بعض المسلمين للقائد أبي عبيد : مرهم فليعبروا هم الينا .

وأحس أبو عبيد بمرارة الالم من استخفاف الفرس، وبلدعة الاسى من تخوف بعض الجنود ، فهتف بين الجنود : ما هم بأجرأ على الموت منا . ونادى باقتحام الجسر .

لقد كان أبو عبيد خواض غمرات وشدائد، وكأنه مفطور على الاقدام والاقتحام ، فلم يتريث ولم يتلبث ، وخصوصا بعد أن أحس روح الخوف في بعض الجنود .

فعل هذا مع ان الخليفة الراشد عمر كان قد أوصاه قبيل المعركة فقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم في الامر، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فانها الحرب ، والحرب لايصلحها الا الرجل المكيث (أى الرزين) الذى يعرف الفرصة والكف » (٢) .

فلماذا فعل أبو عبيد ما فعل ؟

لقد غاظه استخفاف الفرس به وبزملائه من جهة ، وتخوف بعض المسلمين العبور الى الفرس من جهة أخرى ، فأرادها حملة فدائية ، لا يحرص فيها المجاهد

(١) الاستيعاب ، ج ٤ ص ١٢٥ .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٤٤٥ .

على الحياة ، ولأيهاب فيها الموت ، بل لعله يحرص فيها على الموت أكثر من الحياة ، ليضرب مع زملائه مثلا رائعا دافعا الى البذل والفداء ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، ولتكن نتيجة المعركة بعد ذلك ما تكون ...

وهناك أكثر من رواية لهذا الموقف ، فيروى ياقوت أن الفرس قالت لأبى عبيد : اما أن تعبر الينا ، أو نعبر اليك ، فقال : بل نحن نعبر اليكم ، فنهاه أهل الراى عن العبور ، فلج وعبر ، فكانت الكسرة على المسلمين (١) .

وفى « دائرة المعارف » للبستانى (٢) ان عمر جعل أبا عبيد على زهاء الف رجل ، وأمره بالمسير الى العراق لقتال الفرس ، وهو أول جيش سيره عمر ، وكان مع أبى عبيد : المثنى بن حارثة ، وعمرو بن حزم ، وسليط بن قيس ، وساروا حتى نزلوا الثعلبية ، فقال سليط :

يا أبا عبيد ، اياك وقطع هذه اللجة ، فانى أرى للعجم جموعا كثيرة ، والرأى أن تعبر بنا الى ناحية البادية ، وتكتب الى أمير المؤمنين عمر ، فتسأله المدد ، فاذا جاءك عبرت اليهم ، فتناجزهم الحرب .

فتعجل أبو عبيد بالجواب غاضبا على فطرته فقال : جبنت والله يا سليط ! ..

فقال المثنى بن حارثة : والله ما جبن ، ولكنه اشار عليك بالرأى ، فاياك أن تعبر اليهم ، فتلقى نفسك وأصحابك وسط أرضهم ، فتنشب بك مخالبهم .

---

(١) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٤٩ .

(٢) دائرة المعارف بادارة فؤاد افرام البستانى ، طبعة بيروت ، ج ٤ ص ٤٣٦ .

وكأن هــذا لم يخفف من غضبة أبى عبيد لاستخفاف الفرس ، بل زاد فى غضبتــه ، وأمر بالعبور ، فعبروا وعبر المثنى وســليط معهم ، وعبأ ابو عبيد أصحابه ، وجعل نفسه فى القلب شأن القائد الذى لايضن بنفسه ، ولا يضحى بجنوده .

فزحف اليهم العجم ، فرشقوهم بالنشــاب ، حتى كثرت فى المسلمين الجراحات ، فحمل المسلمون حمله رجل واحد ، وكشـــفوا العجم ، ثم ان العجم ثابوا ، وحملوا على المسلمين ...

وهكذا واجه المســلمون معركة غير متكافئة ، فهم ســتة آلاف ، والفرس عشرات وعشرات من الالوف ، وازداد القتــال شراســة ، لان الفرس اســتخدموا الفيلة التى لم يكن للعرب بها عهــد ؛ ولذلك يذكر ابن كثير فى « البــداية والنهــاية » ان الفرس جاءوا معهم بأفيلة كثيرة ، عليهــا الجلاجل قائمة ، لتذعر خيــــول المسلمين ، فجعلوا كلما حملوا على المسلمين فرت خيولهم منهــا ، ومما تسمع من جلاجلها التى عليها ، ولا يثبت منها الا القليل على قسر .

واذا حمل المسلمون عليهم لا تطاوع الخيول بالاقدام على الافيــال ، ومع ذلك فتك المســلمون بستة آلاف من أعدائهم . وأمر أبو عبيــد المجاهدين بأن يقتــلوا الفيلة أولا ، فاحتوشــوها فقتلوها عن آخرها ، وبقى منهــا فيــل عظيم أبيض ، فتقدم نحوه أبو عبيــد ، وضربه بالسيف فقطع ذلومه ، فثــار الفيــل هائجا ، وصــاح صيحة هائلة ، وواصل أبو عبيد طعناته حتى صرع الفيل ، ومال الفيل بجسمه الهائل نحو الارض ، فوقع فوق أبى عبيد ، فنال الشــهادة فى سبيل ربه ،

ونال معه الشـــهادة أخوه وابنـه ، رضـوان الله على الجميع ، واشتـد البلاء عقب ذلك على المسلمين (١) .

ومن يدرى لعل الله أراد ذلك الابتـــلاء العصيب للمسلمين فى موقعة الجسر ، ليضرب هؤلاء الشـــهداء مثلا فى التضحية ، وليفجروا براكين الغضب فى صدور من وراءهم من المجاهـــــدين ، فينتقموا لاخوانهم وشـــــهدائهم ، فيكون النصر المبين من وراء ذلك ، وهذا ما كان .

لقد اقبـل البطل الاسـلامى القعقـاع بن عمرو ، وجعل يهتف مع رفاقه : يا لثارات أبى عبيد ، وأصحاب يوم الجسر ! .. واستطاع هؤلاء المجاهدون أن يثأروا للشهداء من أولئك الاعداء (٢) .

وكذلك اقبل المثنى بن حارثة الشيبانى البطل المقدام مع جمع من المجاهدين ، فهاجم الفرس ، وأسر اميرين من أمرائهم ، وأسر معهما بشرا كثيرا ، وضرب أعناقهم ، ثم استنجد بالمسلمين فى العراق ، ليمدوه بالامداد ، وارسل اليه عمر بمدد كبير ، ودارت بين المثنى والفرس معركة سميت « معركة البويب » والبويب اسم مكان قريب من الـكوفة ، وكانت المعركة فى شـهر رمضان من السنة الثالثة عشرة ، فأمر المثنى جنوده بالفطر ، فافطروا عن آخرهم ليكون ذلك اقوى لهم (٣) .

وكان المثنى يهتف بهم قائلا : « يا معشر المسلمين ، عاداتكم ، انصروا الله ينصركم » ودارت رحى الحرب ، وأخلص المسلمون كفاحهم وجهادهم لربهم ، حتى ركبوا

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٨ . طبعة ١٩٦٦ بيروت .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٥٤٣ .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٩ .

أكتاف أعدائهم ، وأوسعوا فيهم القتل ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ضخمة . يقول ابن كثير : « وذلت لهذه الوقعة رقاب الفرس ، وتمكن الصحابة من الغارات فى بلادهم فيما بين الفرات ودجلة ، فغنموا شيئا عظيما لايمكن حصره » .

وهكذا انتهى الابتلاء العصيب بالنصر المبين ، وصدق العلى الكبير اذ يقول :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » .

لقد اشتدت النكبة على المسلمين يوم الجسر، حتى قال حسان بن ثابت :

لقد عظمت فينا الرزية ، اننا
جلاد على ريب الحوادث والدهر
على الجسر قتلى ، لهف نفسى عليهم
فيا حسرتا ماذا لقينا من الجسر ؟

ولكن المسلمين بعد ذلك انتصفوا لانفسهم ، وعصفوا بقائد الفرس « مهران » ومن معه ، حتى قال فى ذلك الاعور العبدى :

هاجت لأعور دار الحى أحزانا
واستبدلت بعد عبد القيس حسانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع
اذ بالنخيلة قتلى : جند مهرانا
اذ كان سار المثنى بالخيول لهم
فقتل من فرس وجيلانا
سما لمهران والجيش الذى معه
حتى أبادهم مثنى ووحدانا (١)

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٣٠ .

وكان استشـــهاد ابى عبيد فى آخر شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة (١) ، واستشــهد يومئذ معه ثمانمائة ، وقيل : الف وثمانمائة ، وقيل اربعة آلاف ، ما بين قتيل وغريق ، رحمة الله عليهم . ولكن الانتقام أو الانتصاف كان أوسع ، فقد ذكر التاريخ أن الفرس فى هذا الصراع قد فقدوا ما يقرب من مائة الف مابين قتيل وغريق (٢) .

ومضــت الايام والاعوام والاجيــال ، وكلما قيل فى تاريخ الاسلام أسم «أبوعبيد» دون تحديد ، عرف كل متصــل بتاريخ الاسلام ان المقصود هو ذلك البطــل العظيم : أبو عبيد بن مسعود الثقفى .

وكلما قيل فى تاريخ الاسلام كلمة « صاحب الجسر» بلا تحديد ، عرف كل متصل بتاريخ الاسلام ان المقصود هو ذلك المجاهد المقدام ابو عبيد بن مسعود الثقفى .

وكلما قيلت كلمة : « الجسر» بلا تحديد ، عرف كل متصل بتاريخ الاسلام ان المقصود به هو جسر أبى عبيد ابن مسعود الثقفى .

ولذلك يقـــول ياقوت : « اذا قالوا الجسر ، ولم يضيفوه الى شيء ، فانما يريدون الجسر الذى كانت فيه الوقعة بين المسلمين والفرس قرب الحيرة » (٣) .

سلام على ذلك المجاهد الشهيد صاحب الجسر ، وعليه من الله سوابغ الرحمة والرضوان .

---

(١) وقيل فى أول شوال « الاستيعاب ج ٤ ص ١٢٥ » . وقد رثاه ابو محجن الثقفى .

(٢) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٩ .

(٣) معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٤٠ .

المجاهد الشهيد القارئ

معاذ بن الحارث بن الأرقم الأنصاري

قد يكون الوقوع فى الخطأ حظاً مقسوما للانسان ، وظاهرة تصاحب حياته ، لنسيانه وضعفه ، والاسلام العظيم يعترف بهذا ويقرره ، ولكنه فى الوقت نفسه يدعو الانسان المخطىء الى النهوض من العثرة ، والافادة من التجربة والخبرة ، والمسارعة الى نور الفكرة بعد زوال السكرة ، فحث الاسلام الانسان على الشعور بالذنب ، والندم على ارتكابه ، والمبادرة الى تركه ، مع اخلاص التوبة والاستغفار منه .

والقرآن المجيد ـ مع استنكاره الخطأ ـ يحمد أولئك الذين يشعرون بالتقصير ، ويحاولون التكفير ، لانهم يدللون بذلك على يقظة ضمائرهم ، وقوة الوازع الدينى عندهم ، وعدم اصرارهم على الخطأ والاثم .

ولذلك يقول القرآن الكريم عن أهل الجنة : «والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

ويقول عن طائفة من خيار المؤمنين المنيبين : « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » .

ويقول عن جماعة من الصديقين أهل القلوب الرقيقة الحية ، والنفوس المستجيبة الخاشعة : « واذا سمعوا

ما أنزل الى الرســـول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » .

ولقد كان من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم كواكب وأقمار من صحابته ورجاله ، لا نقول انهم من أهل العصمة أو التنزه عن الخطأ ، فما منا من أحـد الا ويؤخذ منه ويرد عليه ، ما خلا صاحب الروضـة رسول الله عليه الصلاة والســلام ، ولـكنا نقول انهم كانوا أمثلة طيبـة فى الايمان والجهاد ، ونماذج حيـة للوفاء والفداء واحتمال البلاء .

وكان أحدهم اذا أخطـأ أو هفا ــ عن سهو أو نسيان أو تقصير ــ خشع وبكى ، وأحس بالخطر ، وندم على ما فعل ، ومحا خطأه بالتوبة والطاعة والاجتهـــــاد فيما يحبه الله ويرضاه .

وهــذا واحد من هؤلاء :

انه الصحابى الجليل أبو حليمة (١) معاذ بن الحارث ابن الارقم بن عوف الانصـــارى الخزرجى ، المشهور بمعاذ القارىء (٢) ، وهو يعد فى أهل المدينـة ، ولعله قد اشتهر بلقب « القارىء » لـكثرة قراءته القرآن ، وتدبره لمعانيه ، وتأثره بما فيه ، ومن جعـل القرآن سميره وأميره وظهيره فقد فاز فوزا عظيما .

وكان معاذ القارىء مجاهدا بطلا ، اشترك فى غزوة الخندق ، وهى غزوة الاحزاب العصـــيبة التى كانت اختبـارا شـديدا لعزائم المؤمنين ، ولولا فضـل الله على الاخيـار من عبـاده لنالهم ما نالهم من الانكسـار

(١) وقيل : أبو الحارث ، ولكن الكنية الاولى أشهر .
(٢) جاء فى الاستيعاب : غلب عليه معـاذ القارىء وعرف بذلك « الاستيعاب على هامش الاصابة ج ٣ ص ٣٢٦ » .

والاندحار ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا ، اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » .

واذا كان المنافقون والذين فى قلوبهم مرض قد قالوا يوم الاحزاب : « ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا » وكانوا كما صورهم القرآن الكريم بقوله : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا ، اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، اشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا » .

اذا كان هؤلاء قد بدوا يوم الاحزاب كذلك ، فان خيار المؤمنين المجاهدين من أمثال معاذ القارىء ،كانوا كما وصف القرآن الكريم : « ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا (١)» .

وشهد معاذ القارىء مواقف أخرى للكفاح

---

(١) فى بعض الروايات : ان معاذا لم يشهد الخندق ، وقيل انه شهد من حياة النبى صلى الله عليه وسلم ست سنين (الاصابة ج ٣ ص ٤٠٧ . تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ١٠١) .

والنضال ، وفى السنة الثالثة عشرة من الهجرة اشترك فى « موقعة الجسر » التى دارت رحاها بين المسلمين ومجوس الفرس على نهر الفرات ، لتحرير العراق من جبروت فارس ، والتى قادها البطل الاسلامى الشهيد « أبو عبيد بن مسعود الثقفى » المشـــــهور بلقب « صاحب الجسر » .

وحينما اشـــتد البــلاء على المسلمين فى هذه المعركة الضروس ، ونال أبو عبيد نعمة الشهادة على أرضها ، اضطر معاذ القارىء الى الانسحاب من أرض المعركة ، مع مجموعة من رفاقه ، ولـــكنه ندم على ذلك ندما موجعا ، وحزن حزنا شـــديدا ، وخاصة انه كان يجد فى القرآن الـــكريم الذى يكثـــر قراءته وتدبره ، قول ربه جل جلاله : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفـــا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئـــذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (١) .

وكان معاذ كلما قرأ هـــذه الآية بكى فاشـــتد منه البكاء ، وخاف على نفسه فاشـــتد منه الخوف ، وكأن شبح فراره يراوحه ويغاديه ، فيفســـد عليه صحوه ونومه ، وأكله وشربه ، وكأنما كان يســـترجع فيما يسترجع الآيات التى وردت فى ســـورة الاحزاب ، فى شأن غير المؤمنين الصـــادقين ، فيخشى ــ وهو التقى الصادق ــ أن يكون منهم .

---

(١) فلا تولوهم الادبار : أى لاتنهزموا امامهم . ومتحرفا لقتال: اى مائلا يمينا أو شمالا ، للاستدراج أو المكيدة للعـدو . ومتحيزا الى فئة : اى متأخرا الى الوراء لينضم الى جماعة من المسلمين يتقوى بها .

وهذه الآيات تقول : « واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ، واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لـكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنـــة لأتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار، وكان عهـد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذن لا تمتعون الا قليلا » .

كان معاذ يبكى ثم يبكى ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا رآه كذلك أشفق عليه ، وخفف عنه ، وقال له : « لا تبك يا معاذ ، أنا فئتك ، وانما انحزت الى » .

وكذلك كان عمر الفـاروق يقول لرفاق معاذ الذين انسحبوا معه : لا تجزعوا يا معشر المسلمين ، أنا فئتكم، انما انحزتم الى . أيها النـاس ، أنا فئتكم ، أنا فئة كل مسلم (١) .

بل لقد قال عمر عن الشهيـد أبى عبيـد صـاحب الجسر : « لو تحيز الى لـكنت له فئة » !

ولقـد روت السيرة العطرة ان جماعة من المجاهدين على عهـد رسـول الله صلى الله عليه وسلم اضطروا الى الانسحاب فى احدى السرايا ، وكان فيهم الصحابى العظيم عبد الله بن عمر ، ثم ندموا على ذلك ندما شديدا وخجلوا أن يدخلوا المدينة ، فقالوا لانفسـهم :

كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب؟

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٥٩ والاستيعاب على هامش الاصابة ج ٣ ص ٣٤٦ .

ثم قالوا : ندخل المدينة ليلا فلا يرانا أحد ، ثم نعرض أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان كان لنا توبة أقمنا ، وان كان لنا غير ذلك ذهبنا .

واتجهوا الى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قبل صلاة الفجر ، وقابلوه قائلين فى الم دفين : يا رسول الله ، نحن الفرارون !

فترفق بهم وقال لهم : بل أنتم العكارون (اى الكرارون) أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين .

ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، وقبلوا يد رسول الله عليه الصلاة والسلام (١) .

***

وحينما جمع عمر المسلمين على صلاة القيام (صلاة التراويح) فى المسجد خلال شهر رمضان ، اختار معاذا القارىء ليكون للناس اماما يصلى بهم هذه الصلاة. وكأنه فعل ذلك ليسمع الناس صوت معاذ المؤثر وهو يرتل فى الصلاة آيات القرآن الذى يحفظه ويعكف عليه . وكان معاذ يقنت فى رمضان ، فيردد لربه تلك الدعوات الخاشعات التى يضمنها رجاءه الى ربه أن يعفو عنه ، وأن يمحو ما يضايقه ، وهو شعوره بالحزن العميق لانسحابه يوم الجسر .

والى جوار هذا كان معاذ القارىء يعنى بالحديث النبوى الشريف ، فيرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن أبى بكر وعمر وعثمان (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٩٣ . وفى سند هذه الرواية كلام .

(٢) الاستيعاب على هامش الاصابة ج ٣ ص ٣٤٦ . والاصابة ج ٣ ص ٤٠٨ . والعبر للذهبى ج ١ ص ٦٨ .

وقد روى الحديث عن معاذ كثير ، أمثال نافع مولى ابن عمر ، وعمران بن أبى انس ، وسعيد المقبرى ، وأبى الوليد البصرى ، وغيرهم (١) .

ومما رواه معاذ عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « منبرى على ترعة من ترع الجنة » .

***

وظل معاذ القارىء يناضل ويجاهد فى سبيل ربه بكل ما يستطيع ، وطال عمره وامتد ، حتى بلغ تسعة وتسعين عاما ، ومضى عليه بعد موقعة الجسر التى انسحب منها نصف قرن من الزمان ، أى خمسون سنة كاملة .

ثم خرج رضى الله عنه سنة ثلاث وستين من الهجرة ليشترك فى موقعة « الحرة » المشهورة .

وفى هذه المعركة نال معاذ القارىء نعمة الشهادة في سبيل الله عز وجل (٢) .

وكأنه كان يتمنى — وهو يجود بآخر أنفاسه فوق أرض المعركة — أن يجعل الله استشهاده تتمة لغفران ما اتاه من انسحابه يوم موقعة الجسر .

وربك هو الواسع المغفرة ، وهو صاحب الفضل العظيم .

---

(١) الاصابة ج ٣ ص ٤٠٧ .

(٢) العبر ، ج ١ ص ٦٨ . والاصابة ، ج ٣ ص ٤٠٧ .

الشهيد المحب للرسول

زيد بن الدثنة الانصاري

ان أخس ما فى أعدائنا من أهل الشرك والكفر والبغى هو الغدر والخيانة ، مع المكر السيىء الوضيع، والاحتيال الحقير المهين ، الذى لا يقيم أى وزن للوعد أو العهد أو الشرف أو مكارم الاخلاق .

وهذه الرذائل المسفة المؤسفة كانت فى أعدائنا بالامس ، وهى فى أعدائنا اليوم ، وستصاحبهم فى الغد : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

ولقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه صحابته وأتباعه ما لقوا من غدر المشركين ولؤم اليهود، ولكن الله جل جلاله زان هؤلاء الاتباع الاخيار بفضيلتى الوفاء والفداء ، فجعلهم يصرون على الحق ، ويثبتون على كلمة الصدق ، مستجيبين لقول ربهم عز من قائل فى ختام سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

***

وهذا واحد من هؤلاء الصحاب الابرار الاخيار :

انه الصحابى الجليل زيد بن الدثنة (١) بن معاوية بن عبيـد بن عامر بن بياضة الانصارى الخزرجي البياضى، رضى الله عنه (٢) . وقد شـهد غزوتى بدر وأحـد ، وأبلى فيهما بلاء حسنا ، ثم ابتلاه الله ـ جلت حكمته ـ بموقف من مواقف الابتـلاء والاختبـار ، دفع فيه حيـاته الغالية ، ولـكنه مضى الى ربه شهيداً مجيداً ، وأبقى من ورائه مثلا فى الاحتمـال ، والثبـات على العقيـدة ، وعمق الحب لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

فقد حدث فى أواخر السنة الثالثة للهجرة أن انتهز المشركون فرصـة الامتحان العصيب الذى مر بالمسلمين فى غزوة أحد الاليمة ، وارادوا أن يوقعوا بالمسلمين عن طريق الخيانة والغدر ، فجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم عدد من قبيلتى عضـل (٣) والقارة اللتين كان أهلهما يضمرون أشـد البغض والعداوة لرسول الله صلوات الله وسـلامه عليه ، وتظاهروا بالاسلام ، وقالوا له : ان فينا اسـلاما وخيرا ، فابعث معنـا نفرا من أصـحابك ، يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شعائر الاسلام !

---

(١) الدثنة : بفتح الدال ، وكسر المثلثة ، والنون بعدها مفتوحة (أنظر الاصابة ج ١ ص ٥٤٨ . وأسد الغابة ، مجلد ٢ ص ٢٨٧ . وروى أن الدثنة بفتح الدال ، وكسر الثاء ، وفتح النون المشدودة ، من قولهم : دثن الطـائر ، اذا طار حول وكره ولم يسـقط عليـه « انظر الاغانى ج ٤ ص ٢٢٥ بالهامش ، ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٣٣) .

(٢) الاصابة ، ج ١ ص ٥٤٨ . والاستيعاب ج ١ ص ٥٣٥ . وأسد الغابة ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٣) الاغانى ، ج ٤ ص ٢٢٥ . وعضل : بفتح العين والضاد .

ولأمر ما يعلمه الله أرسل النبي عليه الصلاة والسلام معهم عددا من أصحابه ، قيل انهم ستة ، وقيل انهم سبعة ، وقيل انهم عشرة ، وكان منهم زيد بن الدثنة ، وفى أثناء الطريق ، وحينما بلغوا موضعا يسمى « الرجيع » – وهو الاسم الذى نسبت اليه البعثة – صعدوا رابية تسمى « الهداة » ، وهنا فوجئوا بمرافقيهم من عضل والقارة يستصرخون عليهم كمين الخيانة والغدر ، حيث هاجمهم مائة رجل من المشركين الاخساء اكثرهم من قبيلة هذيل ، وحينما هم أولئك الصحابة الكرام بمهاجمة أعدائهم قالوا لهم : « لكم العهد والميثاق – ان نزلتم الينا – الا نقتل منكم رجلا » .

فأبى ذلك جانب من هؤلاء الصحاب الكرام ، وقاوموا حتى سقطوا شهداء ، وكان من هذا الجانب الشهيد العاصم : عاصم بن ثابت رضوان الله عليه(١) .

وانخدع بالحيلة الماكرة جانب آخر ، فسلموا أنفسهم لاعدائهم ، وكان من هذا الجانب زيد بن الدثنة الانصارى الذى أسره أولئك الخونة ، وقيدوه بالاغلال ، وذهبوا به الى مكة ليبيعوه فيها بيع العبيد (٢) .

وباعوه فعلا الى ألد الاعداء حينئذ ، وهو صفوان بن أمية بن خلف ، الذى كان مشركا فى ذلك الوقت ، لم ينفتح قلبه للاسلام بعد ، ثم أسلم صفوان بعد ذلك ،

(١) تراجع تفاصيل بطولته فى كتابى : « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ١٤٦ .

(٢) راجع فى القصة : تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٥٣٨ . والطبقات لابن سعد ، ج ٢ قسم ١ ص ٣٩ . وعيون الاثر ج ٢ ص ٤١ و ٤٢ . والاغانى ج ٤ ص ٢٢٥ . واسد الغابة ، ج ٢ ص ٢٨٧ . والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٢٣ . والاصابة ج ١ ص ٥٤٨ . والاستيعاب ج ١ ص ٥٣٥ .

بعد أن شهد غزوة حنين كافراً ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وشهد معركة اليرموك ، وتوفى بمكة سنة اثنتين واربعين ، وقيل توفى فى عهد عثمان ، وقيل يوم الجمل (١) .

ووالد صفوان هو أمية بن خلف الكافر اللعين، عدو الله وعدو الرسول ، الذى مات كافرا فى غزوة بدر ، ولعل صفوان كان يريد ــ وهو ما زال فى ظلمات الجاهلية ــ أن ينتقم لأبيه ، فلما سيطر صفوان على زيد بن الدثنة ، قيده بالاغلال ، وأخذ فى تعذيبه ، ولكن البطل الصابر أحتمل ما لحق به ثابتا مؤمنا ، ثم أمر صفوان عبدا له يسمى « نسطاس » (٢) بأن يقود زيدا المكبل بالاغلال الى مكان يسمى « التنعيم » ليقتلوه .

والتنعيم موضع بجوار مكة فى الحل ، وهو بين مكة وسرف ، على فرسخين من مكة ، وقيل على أربعة فراسخ ، وسمى بالتنعيم ــ كما روى ياقوت الحموى ــ لأن جبلا عن يمينه يقال له : نعيم ، وآخر عن شماله يقال له : ناعم ، والوادى يسمى : نعمان ، ومن التنعيم يحرم المكيون بالعمرة (٣) .

وهناك فى هذا المكان تجمع الاخساء حول زيد ، وأخذوا ــ كما فى بعض الروايات ــ يرمونه بالنبال ليفتنوه عن دينه واسلامه ، فلم يزدد رضوان الله عليه

(١) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ٢٤٩ .
(٢) أسلم نسطاس بعد ذلك وحسن اسلامه (الاصابة ج ٣ ص ٥٢٣) .
(٣) معجم البلدان لياقوت ، ج ٢ ص ٤٩ . طبعة بيروت .

الا ايمانا وتثبيتا (١) .

***

وكان ممن حضر هـذا المشـهد أبو سفيان بن حرب ـ وكان لم يسلم بعد ـ فراعه من زيد هـذا الصبر العجيب على طول التعذيب ، فدنا منه وقال له ، كأنه يستخدم آخر سهم فى جعبته لاختبار زيد :

ـ يا زيد ، نشدتك الله ، أتحب أن محمدا عنـدنا الآن مكانك ، فتضرب عنقه ، وانك فى أهلك ؟

فبماذا أجاب زيد ؟

هل فـكر فى النجاة والسـلامة ؟ ..

هل سارع الى باب الخلاص بعد أن أصابه ما أصابه؟

هل تردد أو تلجلج فى النطق بما يليـق به أن يقوله ويؤكده فى هذا المجال ؟

لا والذى برأ النسم ، وأوجد من العدم .

بل أقام زيد الدليـل على انه من أولئك الاصـحاب الاخيـار الذين كانوا يفدون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم ، لان الحق جل جلاله يقول فى سـورة الاحزاب : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم». ولأن الرسول الصادق المصدوق يقول : «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

ولذلك رفع زيد صوته يعلن به جوابه لأبى سفيان ، قال :

والله ما أحب ان محمدا الآن ، فى مكانه الذى هو

(١) عيون الاثر ، ج ٢ ص ٤٣ . والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٣٠ .

فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وانى جالس فى أهلى .

فازداد أبو سفيان تعجبا ، وقال مقرا على الرغم منه بالحق الساطع :

ـ ما رايت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ! (١) .

***

واخيرا يئس القوم من هـــذا المؤمن ، المناضل الاعزل ، الصابر الامثل ، فأقدموا على تنفيذ القتل فيه، فسألهم أن يمهلوه حتى يصلى لربه ركعتين .

يقول ابن سعد فى « الطبقـات » عن زيد بن الدثنة ورفيقه فى الشهادة خبيب بن عدي : « فحبسوهما حتى خرجت الاشـهر الحرم ، ثم أخرجوهما الى التنعيم فقتلوهما ، وكانا صليا ركعتين ركعتين قبل أن يقتلا ، فخبيب اول من سن ركعتين عند القتل » (٢) .

وعقب انتهـاء زيد من ركعتيه اللتين جعلهما كأنهما اللقاء التمهيدى له مع ربه ، أقبل طواغيت الشرك على المجاهد المفرد الاعزل ، وقطعوا رقبته ، لتصعد روحه الى بارئها ، لتنال كريم جزائها : « أن المتقين فى جنـات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ويروى بعض الرواة عن عبد الله بن عباس انه قال: (٣)

لـما قتـل أصحاب الرجيع قال ناس من المنافقين : ياويح هؤلاء المفتونين الذين هلـكوا هكذا ، لا هم أقاموا فى أهليهم ، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم . (يعنون

---

(١) أسد الغابة ، ج ٢ ص ٢٧٨ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ قسم ١ ص ٤٠ .
(٣) انظر عيون الاثر ، جـ٢ ص ٤٣ . والسيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ١٣٢.

النبى صلى الله عليه وسلم) .

فأنزل الله عز وجل فى هـــــذه الواقعة قوله عن المشركين : (١)

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيـا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام ، واذا تولى ســـعى فى الارض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد » .

ثم أنزل الله سبحانه عقب ذلك فى شأن زيد ورفاقه قوله :

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » (٢) .

***

هـــذا ولقد رثى شاعر الاسلام حسان بن ثابت أبطال بعثة الرجيع ، وحمل على أعدائهم الخونة ، فقال فيما قال :

لعمرى لقد شـــانت هذيل بن مدرك
أحاديث كانت فى خبيب وعاصـــم
أحاديث لحيـــان صلوا بقبيحهـا
ولحيـــان جرامون شـــر الجرائم
هم غدروا يوم الرجيـــع ، وأسلمت
أمانتهم ذا عفـــــة وتـكرم
رسول رسول الله غدرا ، ولم تكن
هـــذيل توقى منـــكرات المحارم

(١) فى سورة البقرة ، الايات ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦
(٢) هناك أقوال أخرى فى سبب نزول هذه الايات .

لعل هذيلا أن يروا بمصابه
مصارع قتلى ، أو مقاما لمأتم
ونوقع فيها وقعة ذات صولة
يوافى بها الركبان أهل المواسم
بأمر رسول الله ، أن رسوله
رأى رأى ذى حزم بلحيان عالم
قبيلة ليس الوفاء يهمهم
وان ظلموا لم يدفعوا كف ظالم
محلهم دار البوار ، ورأيهم
اذا نابهم أمر كرأى البهائم (١)

رضوان الله تبارك وتعالى على شهداء بعثة الرجيع، رضوان الله على الجميع .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ١٣٣ و ١٣٤ .

شهيد سمرقند

قثم بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي

من أكبر عيوب الجبابرة من السلاطين والملوك ـ خلال عصور التاريخ ـ أنهم يستغلون مناصبهم ونفوذهم لصالحهم وصالح أولادهم وأهليهم ، فهم يضنون بهؤلاء الاقارب عن مظان الخطر والتضحية ، وهم يقذفون فى الوقت نفسه بالكثير من الناس الى مواطن الهلاك والدمار، وهم يخصون أنفسهم وأولادهم وأهليهم بالنعيم والتدليل ، ويحرمون غيرهم حقوقهم ، ويكلفونهم فوق ما يطيقون .

ونحن نؤمن بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو امامنا ومرشدنا وقائدنا . فهل كان كهؤلاء ؟ معاذ الله . وكيف يفعل قليلا أو كثيرا من ذلك ، وهو الذى أرسله ربه رحمة للعالمين ، وجعله مثلا أعلى للعدالة والانصاف ، وجلى فيه القدوة الحسنة للمؤمنين : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » .

وكيف وهو الذى كان يقول لابنته فاطمة أعز الناس عليه : « يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » . ويقول عنها : « وأيم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » . ويقول لآل بيته : « يا آل محمد ، لايأتينى الناس بالاعمال

وتأتونى بالانساب ، اعملوا فانى لا أغنى عنكم من الله شيئا » .

مع ان آل البيت النبوى الطهور هم الذين قال فيهم الحق جل جلاله : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . ولم يستغل آل هذا البيت الكريم مكانتهم ولا منزلتهم ليغنموا أو يستحوذوا ، بل طبقوا شرعة الوفاء والفداء على أنفسهم ، قبل أن يطالبوا بها سواهم .

وهذا واحد من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، يعطينا مثلا طيبا فى هذا المجال :

انه الصحابى الجليل ، الباذل المعطاء ، الورع النقى ، المناضل المقترب ، المجاهد الشهيد : قثم بن العباس ابن عبد المطلب الهاشمى ، وكلمة « قثم » معناها الكثير العطاء بين الناس (١) ، وهو اسم صادف مسماه ، وانطبق عليه معناه (٢) .

وقد جمع قثم ـ رضى الله عنه ـ طائفة من المجامد والمفاخر ، فهو أولا ابن عم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهو ثانيا ابن العباس بن عبد المطلب الذى عاون الرسول كثيرا فى مسيرة الدعوة ، وهو ثالثا أخو عبدالله ابن عباس حبر الامة وترجمان القرآن ، وهو رابعا كان قوى الشبه برسول الله ، حتى قال ابن كثير عنه : «كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم» (٣) .

---

(١) تاج العروس شرح القاموس ، ج ٩ ص ١٦ .
(٢) وأمه هى أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية . (الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٠١ القسم الثانى)
(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٧٨ . وانظر كذلك الاصابة ج ٣ ص ٢١٨ . وكتاب العبر للذهبى ج ١ ص ٦١ .

وهو خامسا أخ فى الرضاع لابى الشهداء الحسين بن على رضوان الله عليهما . وقد روى ان أم الفضل ــ والدة قثم ــ قالت لرسول الله عليه الصلاة والسلام : يا رسول الله ، رأيت فى نومى كأن فى بيتى عضوا من أعضائك .

فقال لها الرسول : « خيرا رأيت . تلد فاطمة غلاما ترضعينه بلبن ابنك قثم » .

وكذلك كان ، حيث ولدت السيدة فاطمة ابنها الحسين ، ورضع مع قثم بن العباس من والدته أم الفضل (١) .

وكان الرسول يحب قثم بن العباس ، ويحمله بين يديه ، ويجعله معه فوق دابته .

***

وفوق ذلك كله نشأ قثم نشأة بطولية ، وتربى على الشجاعة والاقدام ، وتعرض للتضحية والاقتحام ، ومما يدل على ذلك انه كان أحد القلة التى ثبتت الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة « حنين » العصيبة ، فلم يفر كما اضطر غيره الى الفرار (٢) .

وقد ثبت مع قثم من آل الرسول : على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه جعفر ، والفضل بن

---

(١) الاصابة ، ج ٣ ص ٢١٨ . وفى تهذيب الاسماء للنووى عن قثم : « وكان أخا الحسين بن على من الرضاعة » . ولكن رواية الاصابة تقول انه الحسن ، والخطب فى الاختلاف يسير : « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » انظر تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ص ٥٩ .

(٢) الدرر لابن عبد البر ، ص ٢٣٩ .

العباس ، وهذا يؤكد ان آل بيت الرسول كانوا في الطليعة .

وظل قثم يحرص على صحبة الرسول والنضال تحت لوائه ، وحينما تأذن الحق سبحانه بأن ينتقل الرسول الى الرفيق الاعلى كسب قثم مفخرة جديدة ، هي أنه كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كان أحد خمسة تولوا غسل الرسول وتكفينه ونزول قبره لدفنه ، وهؤلاء الخمسة هم : على ابن أبى طالب ، والفضل بن العباس ، وأخوه قثم بن العباس ، وشقران مولاه ، وأسامة بن زيد ، وكان آخرهم خروجا من القبر هو قثم ، وبذلك كان آخر الناس عهدا بحبيب الرحمن محمد عليه الصلاة والسلام(١)

وعنى المؤرخون بتسجيل هذه المحمدة ، فيقول الطبرى : اشترك قثم بن العباس فى غسل الرسول ، وكان ممن نزلوا قبره ، وكان آخر الناس عهدا برسول الله (٢) .

ويقول مؤرخ الاسلام الذهبى عن قثم : « وهو آخر من طلع من لحد النبى صلى الله عليه وسلم »(٣) .

ويقول النووى عن قثم : « وهو صحابى ، وغلط بعضهم فذكره فى التابعين ، والصواب انه صحابى ، فكان قثم آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم » (٤) .

ولقد كان المغيرة بن شعبة يزعم انه آخر الناس عهدا

---

(١) الاستيعاب ج ٣ ص ٢٦٢ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١١ و ٢١٤ .
(٣) العبر ، ج ١ ص ٦١ .
(٤) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ٥٦ .

بالنبى ، ولكن النووى يروى ان الامام على بن أبى طالب كان فى العمرة ، فجاءه جماعة من العراق ، وسألوه عن من كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابهم الامام على بقوله : « اظن المغيرة بن شعبة يحدثكم انه كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم» ؟.. فقالوا : اجل، وعن هذا جئنا نسألك . فأجابهم : « أحدث الناس عهدا به قثم بن العباس » (١) .

وكان قثم بن العباس كريما جوادا ، وقد انقطع لمدحه على كرمه وفضله الشاعر الحجازى داود بن سلم المشهور بالادلم والمتوفى سنة مائة وعشرين ، ومن شعره فى مدح قثم قوله يخاطب ناقته :

عتقت من حل ومن رحلة
يا ناق ، ان أدنيتنى من قثم
انك ان أدنيتنى منه غدا
حالفنى اليسر ، ومات العدم
فى كفه بحر ، وفى وجهه
بدر ، وفى العرنين منه شمم (٢)
أصم عن فعل الخنا سمعه
وما عن الخير به من صمم
لم يدر ما « لا » و « بلى » قد درى
فعافها ، واعتاض منها « نعم » (٣)

(١) المرجع السابق .
(٢) العرنين : طرف الانف . وشمم : ارتفاع .
(٣) الاستيعاب ج ٣ ص ٣٦٥ ومعجم الادباء ج ١١ ص ٩٥ و ٩٧

وواصل قثم رضي الله عنه خطواته التقية النقية على طريق الحق والصدق والنضـــال ، واستعان به أمير المؤمنين على بن ابى طالب ، فأسند اليه القيام بشئون « المدينة » (١) . ثم ولاه رعاية شئون مكة والطائف ، فلم يزل قثم واليا على مكة حتى استشـــهد الامام على رضوان الله عليه (٢) .

وانتفع قثم فى ولايته على مكة بتوجيه الامام ونصحه وارشاده .

كتب الامام على الى قثم وهو عامله على مكة يقول له:

« أما بعد ، فأقم للناس الحج ، وذكرهم بأيام الله ، واجلس لهم العصرين ، فأفت المستفتى ، وعلم الجاهل، وذاكر العالم ، ولا يكن لك الى الناس سفير الا لسانك ، ولا حاجب الا وجهك .

ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها ، فانها ان ذيدت عن أبوابك فى أول وردها ، لم تحمـــد فيما بعـــد على قضائها .

وانظر الى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه الى من قبلك من ذوى العيال والمجاعة ، مصيبا به مواضع المفاقر والخلات ، وما فضـــل عن ذلك فاحمله الينا ، لنقسمه فيمن قبلنا .

ومر أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجرا ، فان الله سبحانه يقول : (سواء العاكف فيه والباد). فالعاكف : المقيم به ، والبادى الذى يحج اليه من غير أهله ، وفقنا الله واياكم لمحابه ، والسلام » .

---

(١) البـــداية والنهاية : ج ٨ ص ٧٨ . وتاريخ الطبرى ، ج ٤ ص ٤٤٥ .

(٢) الاستيعاب ج ٣ ص ٢٦٣ . وتاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤٥٥ .

وقد أمره الامام فى هذه الوصية ـ كما يعبر ابن أبى الحديد ـ أن يقيم للناس حجهم ، وأن يذكرهم بأيام الله، وهى أيام الانعام ، وأيام الانتقام، لتحصل الرغبة والرهبة، وأن يجلس لهم العصرين ، أى فى الغداة والعشى .

ثم قسم له ثمرة جلوسه لهم ثلاثة اقسام : اما أن يفتى مستفتيا من العامة فى بعض الاحكام ، وأما أن يعلم متعلما يطلب الفقه ، واما أن يذاكر عالما ويباحثه ويفاوضه .

ثم نهاه عن اتخاذ السفراء والوسطاء والحجاب بينه وبينهم ، بل ينبغى أن يكون سفيره لسانه ، وحاجبه وجهه ، اى يلقى الناس ويواجههم مباشرة .

وحذره أن يصد صاحب الحاجة عن لقائه ، لان هذه الحاجة أن « ذيدت » أى طردت ودفعت ، ولم تقض فى أول أمرها ، فان قصاءها بعد ذلك يكون غير محمود.

وكلمة « المفاقر » معناها الحاجات . يقال : سد الله مفاقره ، أى أغنى فقره ، وقريب من هذا معنى كلمة « الخلات » (١) .

وينبغى أن نتذكر أن قثم بن العباس من الصحابة الذين لهم رواية فى الحديث ، روى عنه أبو اسحاق السبيعى حديثا أخرجه النسائى فى كتاب خصائص علي.

هذا وقد خرج قثم مجاهدا فى سبيل ربه ، فغزا فى اقليم خراسان من بلاد الفرس ، وكان عليها سعيد بن عثمان بن عفان واليا ، فقال لقثم : أضرب لك بألف سهم ؟ ..

(١) شرح نهج البلاغة ، ج ٥ ص ٢١٨ـ ٢٢٠

فقال له قثم : بل أخمس (١) ، ثم اعط النـــاس حقوقهم ، ثم أعطنى بعد ما شئت .

ويعلق محمد بن سعد فى كتابه «الطبقات الـكبرى » على هذا الخبر بقوله : وكان قثم ورعا فاضلا » (٢)

فقثم لم يكن يتطلع فى جهـاده الى المتاع أو المال ، وانما كان يجاهد ابتغاء وجه الله عز وجل ، وكأنه قد وعى خير وعى قول الرســول صلى الله عليه وسلم : « من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »

ثم خرج قثم مجاهدا مع سعيد بن عثمان فى معركة « سمرقند » سنة خمس وخمسين للهجرة ، وما زال يقاتل فى سبيل الله ويناضل ، حتى نال نعمة الشهادة، ورقد هناك فى قبره بسمرقند (٣) ، بعيدا عن داره ، غريبا عن آله ، لينهض جدثه شاهدا على أن لله تعالى عبادا أخلصوا له عقيدتهم ويقينهم ، فانساحوا فى جنات الارض ، يرفعون لواء الحق ، وينشرون دعوة العدل .

وحينما وصل نبأ استشهاد قثم الى أبيه العباس بن عبد المطلب لم يزد على أن قال : « انا لله ، وانا اليـه راجعون » (٤) .

ولا عجب فهو قد تذكر حق التذكر قول الله جـل

---

(١) اى أعزل الخمس المشـــار اليه فى قوله تعـالى : « واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسـول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »

(٢) الطبقات الكبرى ج ٧ ص ١٠١ القسم الثانى .

(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٧٨ ، والاصابة ج ٣ ص ٢١٨ . والاستيعاب ج ٣ ص ٢٦٢ .

(٤) جاء فى كتاب النهـــاية لابن الاثير : « حينما نعى قثم الى أبيه العباس استرجع . اى قال : انا لله وانا اليـه راجعــون » ج ٢ ص ٢٠٢ .

جلاله : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

ويذكر الذهبي في كتابه « العبر » ان قثم بن العباس اشترك في غزوة سمرقند مع سعيد بن عثمان، واستشهد يومئذ قثم سنة ست وخمسين (١) . ولكن الرواية الاولى أكثر شهرة .

وكذلك اختلفوا في قبره ، فقيل انه في سمرقند ، وهذا هو الاصح ، وقيل في مرو ، وقيل في خراسان، رضوان الله تعالى عليه (٢) .

وينبغي أن نتذكر التفرقة بين « قثم بن العباس بن عبد المطلب » شهيد سمرقند ، و « قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس » الذي ولاه المنصور العباسي امرة اليمامة سنة ثلاث وأربعين ومائة والمتوفى سنة تسع وخمسين ومائة (٣) .

---

(١) العبر ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) رحل ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي ، وذكر في رحلته انه زار قبر « قثم بن العباس » الذي استشهد في سمرقند ، ووصف لنا القبر وقبته . وفي سنة ١٩٥٧ م ذهب كاتب اسلامي الى سمرقند وزار القبر ، وقال ان القبر والقبة تعرضا للبلى .

(٣) الاعلام ج ٦ ص ٢٦ .

شهيد الرجيع

مرثد بن أبي مرثد الغنوي

ما أعجب ما صنع الاسلام العظيم بالاوائل من المسلمين ! ..

لكأنما قد خلقهم ربهم خلقا جديدا ، بعد أن طهر حواسهم ، وزكى نفوسهم ، وقوم عقولهم ، وعدل ميولهم ، وأقامهم على الصراط المستقيم .

كانوا صرعى آثام ورذائل ، فحلاهم بالمكارم والفضائل ، وكانوا يطلبون اللذة عن طريق الجنس والخمر ، فسما بهم الى متعة الايمان وروعة اليقين ، وكانوا يتقاتلون على أتفه الاسباب ، فأبدلهم بذلك شرف الجهاد فى سبيل رب الارباب ، وبذلك صاروا خير أمة اخرجت للناس ــ كما قال القرآن المجيد ــ يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله ، ولا يخضعون لاحد سواه .

وبذلك علموا أبناء الحياة كيف يترفعون عن سفاسف الامور وحقائرها ، وكيف يهيمون بالمعالى والمحامد ، تحت ظلال القرآن الحكيم الذى قال فيه رب العزة : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم : صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ، الا الى الله تصير الامور » .

وهــذا واجد من مدرســـة محمــد عليه الصــلاة والسلام ...

كان فى جاهليته شــــابا منطلقا مع هواه ، يخادن المرأة ، ويعرف طريق المتعة الحرام ، فلما أشرق بنور الايمان قلبه اعتدل واستقام ، فكان مثلا طيبا لشباب الاسلام الذين قال القرآن الكريم فى اخوة لهم من قبل : « انهم فتيــة آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى ، وربطنــا على قلوبهم ، اذ قاموا فقالوا ربنـــــا رب السموات والارض ، لن ندعو من دونه الها ، لقد قلنا اذن شططا»

انه الصحابى ابن الصحابى ، المؤمن الفاضل ، العابد المناضل ، الشهيد المجيد : مرثد بن كناز بن الحصين ابن يربوع الغنوى ــ نسبة الى قبيلته غني ــ وكان ابوه أبو مرثد كناز بن الحصين من كبار الصحابة وفضلائهم ومجاهديهم ، شــهد غزوات بدر وأحد والخنـــــدق والمشـــاهد كلها مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وآخى الرســول بين كناز وعبادة بن الصامت ، وكان أبو مرثد يحمل اللواء فى سرية قادها حمــزة بن عبــد المطلب على رأس سبعة أشهر من الهجرة النبوية ، وظل كناز يجاهد ويناضل حتى توفى فى خلافة أبى بكر الصديق ، فى السنة الثانية عشرة للهجرة ، وقد بلغ الســادســة والستين من عمره ، رضوان الله تعالى عليه (١) .

وأما فتانا البطل مرثد بن كناز الغنــوى فقــد آخى الرسول بينه وبين أوس بن الصامت بن قيس الانصارى ،

(١) وقيل فى السنة الحادية عشرة . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ص ٣٢ . واسد الغابة ج ٤ ص ٥٠٠ طبعة دار الشعب ، وتاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٣٨٥ .

الذى شــهد بدرا والمشاهد كلها مع الرســـول عليه الصلاة والسلام ، وكان شاعرا اسلاميا مجيدا ، وسكن القدس ـ أين القــدس الآن يا عرب يا مسلمون ؟ ـ وتوفى بالرملة فى فلسطين ـ أين الآن الرملة وفلسطين ياعرب يا مسلمون ؟ ـ سنة اثنتين وثلاثين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة (١) .

وكان مرثد من أمراء السرايا ، وأبطال الوفاء والفداء ، فى صــدر الاســلام : شــهد غزوة بدر وأحد ، ولم يكن هناك فى غزوة بدر غير فرسين ، أحدهما لمرثد ، والآخر للمقداد بن عمرو (٢) . وقد تبادل مرثد وعلى ابن أبى طالب مع النبى ركوب دابة واحدة فى طريق الغزوة (٣) ، ولمــا أراد مرثد وعلى أن يتنازلا للنبى عن نصيبهما فى الركوب رفض ذلك ، وقال : « ماأنتما بأقدر منى على المشى ، ولا أنا باغنى منكما عن الاجر » .

وكان مرثد يقوم بمهمة فدائية أخرى لها شــأنها ، فقد كان قوى البدن صلب العضلات ، فكان يذهب الى مكة سرا ، ويحمل الاسرى المسلمين الضعاف ليلا ، ويعود بهم الى المدينة . وحدث ذات مرة أن رأته امرأة بغى اسمها « عناق » كان يخادنها فى الجاهلية ، فدعته الى المبيت عنــدها فرفض ، فألحت عليه باغراء واثارة ، فقال لها : ان الله قد حرم الفاحشة ، فدلت عليه قومها ، ولــكن الله تعالى انجاه حتى انقـــــذ الاسير أخاه فى الاسلام وعاد الى المدينة .

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ١٣٠ . وأسد الغابة ، ج ٥ ص ١٣٨ طبعة دار الشعب

(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٢ ص ٤٧٨ .

(٣) الدرر لابن عبد البر ، ص ١١١ .

ويروى ابن الاثير فى كتابه « النهاية » ان عناق .قالت بعد ان يئست منه : يا أهل الخيام ، هذا الدلدل الذى يحمل اساراكم . والدلدل هو القنفذ ، شبهته بالقنفذ لانه اكثر ما يظهر بالليـل ، ولانه يخفى رأســـــه فى جسده ما استطاع .

ويروى ابن عبد البر هـــــذه الحادثة فى كتابه « الاستيعاب » فيقول عنه :

« وكان يحمل الاسرى من مكة حتى يأتى بهم المدينة، قال : وكان بمكة بغى يقال لها : عناق . وكانت صديقة له ، وكان وعد رجلا أن يحمله من أسرى مكة . قال : فجئت حتى انتهيت الى حائط من حيطان مكة فى ليلة قمراء ، فجاءت عنـــاق فابصرت سواد ظلى بجانب الحائط ، فلما انتهت الى عرفتنى ، فقالت :

مرثد ؟ .. قلت : مرثد .

قالت : مرحبا وأهلا ، هلم فبت عندنا الليلة .

قلت : يا عناق ، ان الله حرم الزنى .

قالت : يا أهل الخباء ، هذا الذى يحمل الاسرى .

فأتبعنى ثمانية رجال ، وسلكت الخندق ، حتى اذا انتهيت الى كهف أوغار فدخلته ، وجاءوا حتى قاموا على رأسى ، وأعماهم الله عنى ، ثم رجعوا ، ورجعت الى صاحبى فحملته ، وكان رجلا ثقيلا ، حتى انتهيت الى الاذخر ، ففككت عنه كبله ، ثم جعلت أحمله حتى قدمت المدينة ، فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت : يا رسول الله ، انكح عناق ؟..

فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد على شيئا ، حتى نزلت هذه الآية : (الزانى لا ينكح الا زانية او مشركة) الآية ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وقال لا تنكحها » (١) .

والآية السابقة هي قول الله تعالى فى سورة النور « الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لاينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » .

وقصة « عناق » مع مرثد تذكرنا بقصة يوسف مع امرأة العزيز ، فان « عناق » أرادت من مرثد ما أرادت ، وألحت فى مطلبها ثم ألحت ، وانه لصديق لها فى الجاهلية ، وبينهما من الذكريات السابقة المثيرة ما بينهما ، ولكن الاسلام قد أشرق فى صدره ، فأبى واستعصم، حتى يئستمنه ، فدلت قومها عليه ليوقعوا به الاذى ، ولكن الله أنجاه .

وكذلك أمر يوسف من قبل ، فقد اصطنعت له امرأة العزيز ما اصطنعت لاغرائه ، ولكن برهان ربه أبى عليه ، فاستعصم ، فآذته حتى سجنته ، ولكن الله برأ ساحته .

يقول التنزيل المجيد : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب وقالت : هيت لك . قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين » .

وافترت فادعت عليه انه هو الذى حاول الاعتداء عليها ، وأغرت به زوجها : « قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن او عذاب أليم ، قال هى

(١) الاستيعاب ، ج ٣ ص ٤١٢ . والاذخر اسم موضع . وكبله: قيده .

راودتنى عن نفسى ، وشهد شاهد من أهلها » . وتبين للعزيز صدق يوسف وكذب زوجته فقال لها : « انه من كيدكن ان كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هـذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين » .

ولـكنها ظلت تطارده حتى أدخلته السجن : « قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » . فلبث فى السجن بضع سنين ، ثم أظهر الله فضـله ونبله ، واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة : « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسـه ، وانه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدى كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى ، ان ربى غفور رحيم ، وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين ، قال : اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ولقـد جاء فى تفسير ابن كثير ان رجلا من المؤمنين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زواج امرأة يقال لها « أم مهزول » كانت تسافح ، وتشترط له أن تنفق عليه ، فتلا عليه الرسول الآية (١)

والامام أحمد بن حنبل يذهب الى انه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ما دامت كذلك حتى تستتاب ، فان تابت صح العقد عليها ، والا فلا ، وكذلك

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ص ٢٦٢ .

لايصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى : « وحرم ذلك على المؤمنين » (١) .

وجاء رجل الى عبد الله بن عباس فقال له : انى كنت ألم بامرأة آتى منها ما حرم الله عز وجل على ، فرزق الله من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها !.. فقال اناس: ان الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة .

فقال له ابن عباس : ليس هذا فى هذا ، انكحها ، فما كان من اثم فعلى ! .. (٢)

***

ونعود بعد هذا الى بعث مرثد بن أبى مرثد كناز الغنوى :

لقد اختار النبى صلوات الله وسلامه عليه مرثد بن كناز أميرا وقائدا للسرية الفدائية التى عرفت فى السيرة العطرة باسم « سرية الرجيع » .

ونسبت هذه السرية أحيانا الى أميرها ، فكان يقال عنها : « سرية مرثد الغنوى » (٣) .

و « الرجيع » اسم مكان ، ويقول ياقوت فى معجمه انه الموضع الذى غدرت فيه قبيلتا عضل والقارة بالسبعة نفر الذين بعثهم رسول الله عليه الصلاة والسلام منهم عاصم بن ثابت حمى الدبر (٤) ، وخبيب بن عدى ،

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ..
(٣) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ١٥٤ . وأنظر أسد الغابة ، ج ٥ ص ١٣٨ طبعة دار الشعب .
(٤) أنظر تفاصيل سيرته وبطولته فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ١٤٦ والصفحات التالية لها .

ومرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وهو ماء لهـــذيل قرب الهداة بين مكة والطائف ، وبه بئر معاوية ، وليس ببئر معونة ، هذا غير ذاك (١) .

وكانت هــذه السرية بعد الهجرة بثلاث ســنوات ، حيث وقعت فى شهر صــفر من السنة الرابعة (٢) ، وكذلك جاء فى كتاب « امتاع الاسماع » ان غزوة الرجيع كانت فى صفر على رأس ستة وثلاثين شــهرا ، وكذلك جاء فى « الاستيعاب » . وقيل انها كانت فى آخر سنة ثلاث ، وابن اسحاق يقول ان أميرها هو مرثد ، ولــكن ابن شهاب يقول ان أميرها هو عاصم بن ثابت (٣) .

وكانت السرية متجهــة الى مكة لمهاجمــة أعداء الله وأعداء الاسلام من المشركين ، وكان عدد المجاهدين قليلا كما سبق ــ سبعة أو ستة ــ وفى الطريق فاجأهم مائة من الاعداء ، وأحاطوا بهؤلاء السبعة الــكرام ، وحاولوا خديعتهم واغراءهم بالوعد بالابقاء على حياتهم اذا هم سلموا أنفسهم ، وأكدوا لهم بذلك العهد والميثاق ، ولــكن مرثد بن كناز أدرك روح الغــدر والخيــانة فى كلامهم ، فأبى أن يستسلم لهم ، وكيف يصــدق وعد لمشرك معتد مع مؤمن ، والقرآن المجيد يقول : « كيف يكون للمشركين عهد عنــد الله وعند رســوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما اســـتقاموا لــكم فاستقيموا لهم ، أن الله يحب المتقين ، كيف وان يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم الا ولا ذمة ، يرضــونكم بأفواههم

---

(١) معجم البلدان : ج ٣ ص ٢٩ . طبعة بيروت .

(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٢ ص ٥٣٨ . ويذكر أن عددهم سبعة .

(٣) انظر امتاع الاسماع ج ١ ص ١٧٤ . والاســتيعاب ، ج ٢ ص ٤١٠ .

وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ســاء ما كانوا يعملون ، لايرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون ، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فىالدين، ونفصل الآيات لقوم يعلمون » ! ..

وكانت هناك معركة شرسة غير متعادلة ولا متكافئة ، وظل البطل مرثد يناضل ويناضل ، حتى سقط شهيدا فى ساحة المعركة (١) ، كما استشــهد معه آخران : أحدهما هو البطل الاسلامى الجليل عاصم بن ثابت ، رضوان الله على الجميع .

***

وبجوار بطولة الشهيد المجيد مرثد بن كناز الغنوى فى ميــدان الجهاد والاستشــهاد ، كان راوية للحديث عن رســول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الاحاديث التى رواها قول النبى عليه الصــلاة والسلام : « ان سركم أن تقبل منكم صلاتكم ، فليؤمكم خياركم — أو علماؤكم — فانهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم » (٢).

وهكذا يبين لنا الاسلام أن علو المــكانة لا يستنــد الى نسب أو نشب ، وانما يستند الى العلم والعمــل الصالح ، والى اليقين والتقوى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

***

هذا ولشاعر الاسلام حسان بن ثابت شعر رثى به شهداء سرية الرجيع ، وفيه يقول :

---

(١) الاصابة ج ٣ ص ٣٧٨ . والتهذيب ج ١٠ ص ٨٣ .
(٢) الاصابة ، ج ٣ ص ٣٧٨ .

صلى الاله على الذين تتـــــابعوا
يوم الرجيـــــع فأكرموا . وأثيبـــوا
راس السرية مرثد وأمـــــــيرهم
وابن البكير امامهم وخبـــــــيب
وابن لطـــــارق ، وابن دثنة منهم
وافاه ثم حمـــــامه المـــكتوب
والعاصم المقتـــول عنـــد رجوعهم
كسب المعــــالى ، انه لـــكسوب
منع المقــــادة أن ينـــــالوا ظهره
حتى يجالـــــد ، أنه لنجيب ! (١)

ومرثد هو صاحبنا وبطلنا : مرثد بن ابى مرثد كناز الغنوى . وابن البكير هو : خالد بن البـكير الليثى ، وخبيب هو : خبيب بن عدى ، وابن لطارق هو : عبدالله ابن طارق ، وابن الدثنة هو : زيد بن الدثنة ، والعاصم هو : عاصم بن ثابت بن أبى الاقلح .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

---

(١) معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٩ . وهناك من ينكر نسبة هذه الابيات الى حسان ، انظر السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ١٣٤

الشهيد الحي

طلحة بن عبيد الله

حين تجتاز الامة مرحلة خطيرة من تاريخ نضالها مع أعدائها الذين يتربصون بها الدوائرعن يمين وشمال، تتطلب الكثير من ألوان القوة والاستعداد ، ومن بين هذه الالوان : القدوة الطيبة الرائعة ، التى تجذب ببهائها ، ويهتدى بسناها ، وما أحوجنا الى أن نقلب صفحات تاريخنا المؤمن ، نتلمس منه مواطن القدوة ، ومشاهد الاسوة ، لعل الله جل جلاله يبعث الهامد ، ويحرك الجامد ، ويأخذ بالنواصى الى منهج الاوائل البطولى المؤمن ، ولن يصلح أمر هذه الامة فى حاضرها الا بما صلح به فى أولها : « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » وهو سبحانه على كل شيء قدير .

وهذا مثل من السابقين يحتذى به ، ويرجع اليه:

انه الصحابى الجليل : أبو محمد طلحة بن عبيد الله ابن‌عثمان، رضى الله عنه ، الشهيد الحى ، الذى سبق فى التاريخ ، وشهد عصر النبوة الطاهر العاطر، وخلف من ورائه الذكر الحميد المأثور .

انه أحد الثمانية السابقين الى الاسلام فى أوله ، فكان أحد أفراد الطليعة المباركة التى كان الواحد منها يوزن بألف ، ومنذ عمر الايمان قلبه ظل وفيا لعهده ، ماضيا فى طريقه ، لا يغدر ولا يخون ، ولا ينحرف ولا يمين ،

حتى لقى ربه الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

انه أحد العشرة المبشرين بالجنة علي لسان النبوة الصدوق الطهور ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، كما أخبرنا عمر الفاروق رضوان الله عليه .

ولقد أسلم طلحة على يد أبى بكر ، وهو ابن عمه ، وابو بكر هو الرجل المبارك السباق الى الخيرات عليه رضوان الله ، ولما ذهب طلحة مع ابى بكر ، ونطق بالشهادتين أمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وخرجا من عنده ، هاجمهما نوفل بن خويلد مع بعض أتباعه ، وكان طاغية متجبرا ، وله عصبيته القوية بين أهله ، حتى كان يقال له : « أسد قريش » ، وربطهما فى حبل واحد ، تعذيبا لهما من أجل اسلامهما .

ولذلك كان أبو بكر وطلحة يقال لهما : «القرينان» . واكرم بها من تسمية خلدت ذكرى احتمالهما العذاب والابتلاء فى سبيل الدعوة الى الله عز وجل .

ووقف طلحة بعد اسلامه الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يهتدى بهديه ، ويأتمر بأمره ، ويستجيب لرغبته ، فكأنه الآلة الدائرة المسخرة المهياة المطواعة التى لا تتأبى على أى عمل من أعمال الطاعة أو الخير .

وجاء وقت الهجرة ، فنال طلحة شرف الهجرة من مكة الى المدينة ايمانا واحتسابا ، فكان من المهاجرين السابقين الاولين ، وآخى النبى بمكة قبل الهجرة بين طلحة والزبير بن العوام ، ثم آخى بالمدينة بينه وبين أبى أيوب الانصارى ، كما يقول السخاوى فى كتابه : « التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة » ، ويذكر النووى فى

كتابه : « تهذيب الاسماء واللغات » ان الرسول آخى بين طلحة وسعد بن ابى وقاص ، رضوان الله على الجميع .

ولمح الرسول عليه الصلاة والسلام مخايل الاخلاص والصدق واليقين فى طلحة ، فأخذ يختاره لجلائل المهمات ، وعظائم التبعات ، فكلفه مثلا مع سعيد بن زيد بأن يتابعا تحركات قافلة المشركين ، قبيل غزوة بدر ، فقاما بالمهمة خير قيام ، بلا غش ولا تزيد ولا خداع ، وحينما بدأت غزوة بدر كان طلحة غائبا فى عمل من أعمال الخير التى تعاون على تحقيق المنعة والقوة للمسلمين ، فلم يستطع شهود الغزوة ، ولكن الرسول قدر اخلاصه ووفاءه ، فجعله كمن شهدها ، وأعطاه منها سهمه ، وأخبره بأن له مثل ثواب أهلها .

ويا لها من مكانة سامية ، حين يبلغ المؤمن المخلص فى نضاله واخلاصه ما يجعله حاضرا وهو غائب .

ولقد روى عن الامام على رضى الله عنه ان أحد المجاهدين معه قال له بعد احدى المعارك : وددت أن أخى فلانا كان شاهدا ، ليرى ما نصرك الله به على أعدائك . فقال له الامام : أهوى أخيك معنا ؟.. فقال : نعم . قال الامام : فقد شهدنا .

وليس المهم هنا هو ان يأخذ طلحة مالا أو يحوز كسبا ، وانما المهم هو ما يدل عليه هذا التقدير النبوى من تشريف وتكريم ، فقد كان طلحة رجلا تاجرا ، وكان يكسب الكثير الطيب ، وكان يسهم بالجليل العظيم من مكاسبه فى نصرة الاسلام ، ومعاونة المجاهدين ، وتأييد معركة الحق والايمان ضد الباطل والكفران .

ثم شهد طلحة غزوة « أحد » وما بعدها من الغزوات والمشاهد ، وفى غزوة احد هذه ظهرت دلائل مؤكدة

لايمان طلحة ويقينه ، وصدقه فى الجهاد ، ورغبته فى الاستشـــهاد ، وكان أحد أربعة وصفتهم السيرة العاطرة بأنهم أبلوا بلاء حسنا فى غزوة أحد ، وهم : على بن أبى طالب سيف الله الغالب ، وحمزة بن عبد المطلب سيــد الشهــداء ، وأبو دجانة صاحب عصابة الموت ، وطلحة ابن عبيد الله الشهيد الحى .

وقاتل طلحة فى أول المعركة ما قاتل ، وحينما أقبلت ساعة الهول ، وتحول الانتصار الى انكسار ، ثبت طلحة الى جوار الرسول ، مع القلة التى ثبتت ، لم يفر ، ولم يتراجع ، بل ظل يقــاوم ويدافع ، ويحرص مع قلة الصادقين الصابرين على حراسة النبى ، وصــد كل عدوان عنه .

وحينما سقط الرسول صلى الله عليه وسلم فى احدى الحفر ، والسيوف والرماح والنبال والسهام تتجاوب وتتراشق عن يمين وشمال ، ســارع طلحة واحتضن رســول الله ، وظل محتضـــنا له حتى خرج الرسول من الحفرة وعاد الى وقفتـــه الثابتـــة المناضـــلة ، وتعددت الاصــابات فى جســم النبى الـكريم ، برغم الجهد الـكبير الذى بذله مثل طلحة بن عبيــد الله ، وكان على الرســـول درعان ، وبه تعب ، فأراد ان يعتلى صخرة ، ليشرف من فوقها على سير المعركة ، ولكنه لم يستطع ان يعلوها ، فانحنى له طلحة ، وصــعد الرســـول فوق ظهره ، ثم ارتفع به طلحة شـــيئا فشـــيئا ، حتى بلغ الصخرة ، واســـتوى عليها ، وظل طلحة يناضــل ويقاوم .

وحينما رأى طلحة ضربة أثيمة موجهة الى رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ، ســـارع فوقى الرســـول

منها بيده ، فأصابها الشلل ، وقطعت احدى اصابعها ، وهنا قال سيد الخلق الناطق بالصدق :

« أوجب طلحة » أى فعل ما يوجب له الجنة عند ربه عز وجل .

وتكاثرت الجراح فى جسم طلحة يومئذ ، حتى أصابه بضع وسبعون ، ما بين ضربة بسيف ، وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، واجهده نزيف الدم من جسمه ، وحينما دنا ابوبكر وأبوعبيدة من الرسول ليعالجا ما أصاب وجهه الكريم من جراح ، أشار لهما الى طلحة ، وقال لهما : «عليكما بصاحبكما ، دونكم أخاكم » ..

وفى أعقاب المعركة أصيب طلحة باغماء من جراء اصابته الشديدة ، فصب أبوبكر الماء على وجهه فاستفاق ، وما كاد يسترد وعيه حتى قال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ..

فأجابه أبوبكر : انه بخير . ففرح طلحة وقال : الحمد لله كل مصيبة بعده جلل (أى قليلة) .

وهكذا يكون صدق الحب لرسول الله ، واخلاص الجهاد فى سبيل الله . ولذلك كان أبوبكر رضى الله عنه اذا جاء ذكر ليوم أحد يقول : « ذلك يوم كان كله لطلحة » .

***

ثم يقبل التكريم النبوى العظيم لهذا الحرص النبيل من طلحة على صدق الجهاد ، وهذا التعرض البطولى لمواطن الاستشهاد ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من سره أن ينظر الى شهيد يمشى على وجه الارض فلينظر الى طلحة بن عبيد الله » .

ولقد جرى العرف بيننا على ان نطلق كلمة «الشهيد الحي » على من تعرض لموقف التضـــحية بالنفس فى موطن من مواطن الجهاد والاستشهـاد ، ولـكن الاقدار أبقت حياته برغم تمنيه الشهادة ، وتطلبه ما عند الله عز وجل ، ولقد يخيل لبعضنا ان هـذا تعبير طريف مستحدث ، ولـكنه كما يبدو لنا الآن مقتبس من ضوء النبوة العظمى على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وهـذه الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر رضوان الله عليهما تروى عن رسول الله انه قال : «طلحة ممن قضى نحبه وما بدلوا تبديلا » . أى من الشهداء ، لان النحب هو النذر ، وقضى فلان نحبه : أى أدى نذره ، وحقق وعده .

وتلك اشـارة من الرسول عليه الصلاة والسلام الى قول الله جل جلاله : « من المؤمنين رجال صـــدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

ولنذكر جيدا ان هـذه الآية جاءت عقب آية سابقة لها تقول : « ولمـا رأى المؤمنون الاحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسـوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما » .

وروت السنة النبوية أن أعرابيا سـأل رسـول الله عمن « قضى نحبه » وبعد قليل من السؤال أقبل طلحة ، فقال النبى : أين السائل عمن قضى نحبه ؟..

قال الاعرابى : انا يا رسول الله .

فأشار النبى الى طلحة وقال للسائل : هـذا ممن قضى نحبه .

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : « طلحة والزبير

جاراى فى الجنة » . وأكرم بها من بشرى ، وأنعم به من جوار ينال به طلحة نعيم الخلود وشرف الابد ، حين يجاور فى الفردوس الاعلى امام الانبياء وسيد المرسلين ، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

***

وحينما تهيأ المسلمون لغزوة « تبوك » فى وقت عسرة وشدة وجدب وقحط ، ظهراللؤم اليهودى الخسيس، حيث اجتمع نفر من المنافقين فى دار « سويلم اليهودى» وكانت عند بئر يقال لها « جاسوم » .

وتآمر الاخساء ضد المسلمين ، واخذوا يحرضون من يستجيب لهم على ترك الخروج مع الرسول للجهاد، فبعث النبى طلحة ومعه بعض المسلمين ، فأشعلوا النار فى وكر الفتنة وعش المؤامرة ، وهو بيت ذلك اليهودى الخائن ، فكان هذا العقاب التأديبى ردعا وزجرا لامثاله من سلالة القردة والخنازير .

وكان طلحة مع ذلك رجلا نقى القلب ، صافى النفس، يفرح للخير الذى يناله اى أخ له فى الاسلام ، ولذلك نراه يفرح حينما تاب الله تبارك وتعالى على كعب بن مالك ، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا فى غزوة تبوك ، وقد قص الله علينا قصتهم فى سورة التوبة .

وجاء كعب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب نزول قبول توبته من عند الله عز وجل ، فسارع طلحة الى كعب ، وحياه وهنأه بفضل الله عليه ، مما أثر فى نفس كعب حتى قال وهو يروى قصته : « والله ماقام الى رجل من المهاجرين غيره » . وكان كعب لاينسى لطلحة هذا الصنيع .

والى جوار هذا كان طلحة رجلا يحسن عمل الدنيا

ويتقنه ، ويكسب الكثير بجده وجهده ، وما كان يكسب ليكنز ويطفى ، بل كان يكسب وينفق ، ويتوسع فى الانفاق والبذل والتبرع ، وحسبنا ان نعلم انه قد تبرع بسبعمائة ألف درهم فى احدى الغزوات .

ولذلك استحق أن يسميه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه : « طلحة الخير » و « طلحة الجود » و « طلحة الفياض » ، تقديرا لكثرة ما قدم ، ولفخامة ما أعطى ، وعظم ما أنفق فى سبيل الله : « انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ، اولئك هم الصادقون » .

ولقد قال قبيصة بن جابر : « صحبت طلحة بن عبيد الله ، فما رأيت رجلا أعطى لجزيل مال منه من غير سؤال » .

ومع الجهاد ، والاحتساب ، والاكتساب ، والانفاق ، كان طلحة حريصا على طلب العلم والتفقه فى الدين ، ولذلك روى الكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، سمعها ووعاها ، وحفظها وأداها . وقد أثبت البخارى ومسلم وغيرهما هذه الاحاديث .

وظل طلحة ثابتا على ايمانه ويقينه ، وجهاده واحسانه ، حتى مات شهيدا فى « معركة الجمل » سنة ست وثلاثين للهجرة ، ودفن فى مدينة البصرة ، رضوان الله تعالى عليه .

ولما رأى الامام على رضى الله عنه جثة طلحة بكى حتى اخضلت لحيته بدموعه ، ثم قال يخاطبه : انى أرجو أن أكون أنا وانت ممن قال الله فيهم : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين » .

هكذا رسم لنا أسلافنا المنهاج على طريق الحق والنضال ، فلم تكن بطولتهم قوة فى الابدان ، او براعة فى الطعان ، فحسب ، بل كانت بطولتهم قائمة على الايمان واليقين ، وعلى الكفاح والنضال ، وعلى أداء سائر الواجبات والاعمال ، وعلى العلم النافع ، والخلق النبيل ...

وسيرة طلحة انما هى نفحة من نفحات تاريخنا العظيم ، الملىء بمواطن القدوة ، ومواقف الاسوة ، فما أجدرنا بان نستلهم من ماضينا لحاضرنا ، وان نمضي على طريق سلفنا ، فنؤمن كما آمنوا ، ونصدق كما صدقوا ، ونجاهد كما جاهدوا ، لنفوز كما فازوا.

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » .

المجاهد العملاق

مالك بن الحارث : الأشتر النخعي

اذا كان فقه الاسلام قد تحدث عن الزكاة التى شرعها الله فى المال ، صامتا كان أم ناطقا ، فان هذه الزكاة هى الزكاة الشرعية الفقهية المادية التى تعارف عليها جمهور المسلمين ، ولكن الاسلام بروحه ومبادئه قد دعا الى ألوان أخرى من الزكاة ، فحث مثلا على الشجاعة التى تعد عند أهل الوفاء والفداء زكاة للقلب المؤمن الموقن .

وحث على بذل العلم ، وهو زكاة العقل الزكي البصير .

وحث على الجهر بكلمة الحق المبينة البليغة ، وهى زكاة اللسان الصادق الطهور .

واذا اجتمعت للمسلم صفات العطاء والفداء ، والعلم والبيان ، فقد أكمل الله له جوانب الخير ، وأوسع عليه فى أبواب البر ، والله يختص برحمته ونعمته من يشاء ، وهو صاحب الفضل العظيم .

وهذا رجل من أعلام صدر الاسلام ، نراه يتألق ضمن الشجعان الاجواد العلماء الفصحاء ، الذين جاهدوا فى ميادين النضال والبذل ، كما جاهدوا فى مجالات العلم والقول : وهو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعى ، المعروف بالاشتر .

وقد توافرت له بسطة فى الجسم ، فكان طويلا عملاقا .

وتوافرت له بسطة في العلم ، فكان فقيهـا خطيبـا شاعرا .
وتوافرت له كثرة في المال ، فـكان كريما معطاء .
ثم كان بعد ذلك مجاهدا بطلا فاتحا ...
ولقد لقب بلقب « الاشتر » لانه اشـترك في معركة اليرموك في السنة الخامسة عشرة ، فذهبت عينه فيها، وانقلبت جفونه ، وانقلاب الجفون يسمى « الشتر » في لغة العرب .
وبجوار ذلك كان الاشتر يلقب بلقب « الافعى» (١) لعمق خبرته وسـعة حيلتـه في الحرب ، ولذلك كان يردد قوله :

انى أنا الاشتر ، معروف الشتر
انى أنا الافعى العـراقى الذكر

وكان ماهرا في ضربة السيف السريعة الخاطفـة ، ولذلك كانوا يسـمون سيفه « اللج » أى بريق المـاء الجارى ، وطالمـا ضرب الاشتر أعداءه بسيفه الضربات المتوالية المتلاحقة .
وكان يقول اذا تـكاثر عليه أعداؤه في القتـال : « الغمرات ثم ينجلينا » (٢) . والغمرات هي الشـدائد والمتاعب التى تغمر الانسان وتحيط به . أى انى أصبر في الشـدائد وأتحملها ، لانها ستنجلى وتذهب ، ويبقى بعد ذلك : العمل المجيد والذكر الحميد للرجال الابطال .
وكان الاشتر النخعى رجلا لا يقيم كبير ميزان للبقاء في الحيـاة الدنيـا ، ولا يحرص على طول الاقامة فيهـا ، ما دام ينـال رضـا ربه ورضـوانه ، وكان

(١) أنظر مروج الذهب ، ج ٤ ص ٣٥٧ .
(٢) قيل ان العبارة للاغلب العجلى . أنظر مجمع الامثال للميدانى

لايهاب الموت ولا يخشى المنيـة ، بل كان يرجو ربه أن ينيله نعمة الشهادة فى سبيله ، وفى ميدان نضاله ضد أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المسلمين ، فكان يردد قوله :

يارب ، قيض لى سـيوف الكفره
واجعـل وفاتى بأكف الفجـره
فالقتـل خير من ثياب الحبره
لا تعـدل الدنيـا جميعـا وبره
ولا بعوضـا ، فى ثواب البروه ! (١)

ولقد كان الامام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنـه وأرضاه ، وكرم الله وجهـه وأعلاه ـ يعجب بالاشـتر النخعى ، ويقدر بطولتـه وشجاعته ، حتى قال الامام لاصحابه : « ليت فيكم مثله اثنين ، بل ليت فيكم مثله واحداً » (٢) .

ولذلك قال بعض الشيعة : « لله أم قامت عن الاشتر ، لو أن انسانا يقسم ان الله تعالى ما خلق فى العرب ولا فى العجم اشجع منه الا أستاذه (عليا) عليه السلام لما خشيت عليه الاثم » (٣) .

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٨٤٠ . وفى كتاب « وقعة صفين » ، صفحة ٤٨٨ جاءت الابيات هكذا :

فى كل يوم هامتى مقيره ... بالضرب أبغى منة مؤخره
والدرع خير من برود حبره ... يارب جنبنى سبيل الكفره
واجعل وفاتى بأكف الفجره ... لاتعدل الدنيا جميعا وبره
ولا بعوضا فى ثواب البروه

(٢) شرح نهج البلاغة ، ج ١ ص ٤٤١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٤

وحينما ولى الامام على الاشتر النخعى على مصر ، كتب الى أهلها كتابا يصف فيه الاشتر وصفا مجيدا ، وفى هذا الكتاب يقول الامام :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين ، الى أمه المسلمين الذين غضبوا لله حين عصى فى الارض ، وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر ، فلا حق يستراح اليه ، ولا منكر يتناهى عنه .

سلام عليكم ، فانى أحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو . أما بعد فقد بعثت اليكم عبدا من عبيد الله ، لاينام أمام الخوف ، ولا ينكل عن الاعادى حذار الدوائر ، أشد على الكفار من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فانه سيف من سيوف الله ، لا نابى الضريبة ، ولا كليل الحد ، فان أمركم أن تقدموا فأقدموا ، وان أمركم ان تنفروا فانفروا ، فانه لا يقدم ولا يحجم الا بأمرى ، وقد آثرتكم به على نفسى ، لنصحه لكم ، وشدة شكيمته على عدوكم ، عصمكم الله بالهدى ، وثبتكم على اليقين ، والسلام » (١) .

ووصفه الامام فى رسالة أخرى بقوله : « فانه ممن لايخاف رهقه ولا سقاطه ولا بطؤه عما الاسراع اليه أحزم ، ولا الاسراع الى ما الابطاء عنه أمثل » (٢) .

والتاريخ يحدثنا بأن الاشتر كان من أخلص الناس للامام على ، وكان أحد القادة لجيوشه ، وقد حارب معه طويلا ضد الروم ، على الحدود الشمالية لبلاد

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ص ٩٦ . وشرح نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٣١٣ . وفى ص ٣٣١ رواية أوسع لهذا الكتاب .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ص ٥٦٧ .

الشام ، واظهر الاشتر خبرة وبراعة فى الحرب ، وقيادة الجيش ، وقد اهتدى الاشتر الى طريقة اقامة الجسور العائمة فوق الانهار لنقل الجيوش والعتاد ، ومن أمثلة ذلك انه طلب من أهل مدينة «الرقة» أن يتكاتفوا لاقامة جسر من الزوارق فوق نهر الفرات ، لينقل عليه جنود الجيش المناضل المؤمن (١) .

وكان الامام على يوجه الاشتر ويوصيه فى شئون القتال والنضال ، كان يقول له : « واياك ان تبدأ القوم بقتال الا أن يبدءوك ، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع ، ولايجرمنك شنآنهم (٢) على قتالهم قبل دعائهم ، والاعذار اليهم مرة بعد أخرى » . (٣)

وفوق خبرة الاشتر ومخادعته فى الحرب ومراوغته للأعداء ، كان فى بعض المواقف يعرض نفسه للمهالك ، ويخاطر بها مواجهة ، ومن أمثلة ذلك انه قاد جمعا من طلائع المجاهدين ، وقد تعمم معهم بعمائم خضر ، ثم تعاهدوا فيما بينهم أن يقاتلوا حتى ينتصروا أو يموتوا شهداء ، وأراد الله لهم البقاء ، فغلبوا وعادوا بحميد الاجر ورائع الثناء . وكذلك كان الاشتر يعلم أهله دروس الوفاء والفداء ، ولذلك كان يشرك ابنه ابراهيم معه فى المعارك ، ويحثه على الاقدام والتضحية .

***

ومما يتألق تألق الشمس فى سيرة الاشتر النخعى ذلك العهد العلوى الذى وجهه اليه الامام أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو أطول عهد كتبه

---

(١) دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٤١١ .
(٢) ولايجرمنك شنآنهم : لايحملنك بغضك لهم .
(٣) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ص ص ٥٦٧ .

الامام ، واجمعه للمحاسن (١) ، وفى فاتحة هـــذه الوصية الجليلة يقول الامام للأشتر حين ولاه على مصر وأعمالها :

« هــذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين : مالك ابن الحارث الاشتر ، فى عهده اليه ، حين ولاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصــلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

أمره بتقوى الله ، وايثار طاعته ، واتباع ما أمر به فى كتابه ، من فرائضه وسننه التى لا يسعد أحد الا باتباعها ، ولا يشقى الا مع جحودها واضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه ، فانه ــ جل اسمه ــ قد تكفل بنصر من نصره ، واعزاز من أعزه .

وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات ، وينزعها عند الجمحات ، فان النفس أمارة بالسوء ، الا ما رحم الله » .

وفى اثنــاء هــذا العهــد الطويل الجليل يقول الامام على للأشتر النخعى :

« فالجنود باذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين ، وسبيل الامن ، وليس تقوم الرعية الا بهم ، ثم لا قوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به على جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم » .

ثم يختم هذا العهد بقوله :

« وأنا أسأل الله ــ بسعة رحمته ، وعظيم قدرته على

---

(١) اورد ابن أبى الحديد هــذا العهد بأكمله فى شرحه « نهج البلاغة » وعلق عليــه تعليقا طويلا ، انظر الجزء الخــامس ص ٢٣ - ٩٤

اعطاء كل رغبة ــ أن يوفقني واياك لما فيه رضاه ، من الاقامة على العذر الواضح اليه والى خلقه ، من حسن الثناء فى العباد ، وجميل الاثر فى البلاد ، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة ، وان يختم لى ولك بالسعادة والشهادة ، انا اليه راغبون ، والسلام على رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين » .

ولذلك لم يكن عجيبا أن نرى الاشتر النخعى يحب قائده ورائده الامام عليا حبا شديدا ، ويعرف له قدره ويمجد ذكره ، ولقد وقف الاشتر يوم « ذى قار» (١) بين يدى أمير المؤمنين على فقال فيما قال :

« الحمد لله الذى من علينا فأفضل ، واحسن الينا فأجمل . وقد سمعنا كلامك يا أمير المؤمنين ، ولقد أصبت ووفقت ، وأنت ابن عم نبينا وصهره ، ووصيه وأول مصدق به ، ومصل معه .

شهدت مشاهده كلها ، فكان لك الفضل فيها على جميع الامة ، فمن اتبعك أصاب حظه ، واستبشر بفلجه (٢) ، ومن عصاك ورغب عنك فالى أمه الهاوية»

***

والى جوار بطولة الاشتر ، وبذله فى ميادين القتال والنضال ، كان جوادا معطاء ، يبذل من ذات يده الكثير الغزير ، وكان جريئا فى مقاومة المآثم والمظالم التى يرتكبها الآثمون الظالمون من الحاكمين .

فهو يعترض عليهم ، ويقف فى طريقهم ، ويندد بسيئاتهم ، اذا لم يستمعوا ولم يرتدعوا . وكان رجلا

(١) ذو قار : موضع قريب من البصرة ، وهو المكان الذى كانت فيه الحرب بين العرب والفرس
(٢) الفلج : الفوز والظفر .

يغار على حقوق الناس ، ويدعو الى سيادة العدل والحق بينهم ، ويقاوم الاستبداد والاحتكار .

ولقد حاول بعض الحاكمين أن يستغل أرض السواد بالكوفة لصالح قبيلته قريش قائلا : انما هذا السواد بستان لقريش .

فأنكر عليه الاشتر هذا الادعاء ، وقال له : أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا الا أن يكون كأحدنا (١) .

وكان الاشتر يردد قوله داعيا ربه :

« اللهم ، أسوأنا نظرا للرعية ، وأعملنا فيهم بالمعصية ، فعجل له بالنقمة » (٢) .

والى جوار بطولته فى الميدان ، واعطائه للمال ، وحرصه على خير الناس واصلاح المجتمع، كان حريصا على العلم يطلبه كلما تيسر له ، وعلى التفقه فى الدين كلما وجد الى ذلك سبيلا .

وكان صاحب شعر جيد وخطابة بليغة ، وتجلت بلاغته أحسن ما تجلت فى خطبه وكلماته التى كان يحث فيها زملاءه وجنوده على صدق الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد .

وقف الاشتر يخطب الناس فى « قناصرين » فكان مما قاله :

« الحمد لله الذى خلق السموات العلى : الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الارض

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٢٣ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٤ ص ٣٢٦ .

وما بينهما وما تحت الثرى . احمده على حسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، حمدا كثيرا ، بكرة وأصيلا ، من هداه الله فقد اهتدى ، ومن يضلل فقد غوى . ارسل محمدا بالصواب والهدى ، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وسلم .

ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر ، أن ساقتنا المقادير الى أهل هذه البلدة من الارض ، فلفت بيننا وبين عدو الله وعدونا ، فنحن بحمد الله ونعمه ، ومنه وفضله ، قريرة أعيننا ، طيبة نفوسنا ، نرجو بقتالهم حسن الثواب ، والامن من العقاب . معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله على بن أبى طالب ، صلى مع رسول الله ، لم يسبقه الي الصلاة ذكر حتى كان شيخا ، لم تكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة ، فقيه فى دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو رأى أصيل ، وصبر جميل ، وعفاف قديم .

فاتقوا الله ، وعليكم بالحزم والجد » .

وفى موقف آخر يقول :

« . . . فطيبوا عباد الله نفسا بدمائكم دون دينكم ، فان الفرار فيه سلب العز ، والغلبة على الفيء ، وذل المحيا والممات ، وعار الدنيا والآخرة ، وسخط الله واليم عقابه » .

ومن مواقفه المذكورة انه دعا بالحارث بن همام النخعى ، فأعطاه لواءه ، وقال له :

يا حارث ، لولا أعلم انك تصبر عند الموت ، لاخذت لوائى منك ، ولم احبك بكرامتى .

فقال : والله يا مالك لاسرنك أو لاموتن ، فاتبعني .

ثم تقدم باللواء ، وارتجز فقال :

يا أخا الخيرات ، يا خير النخع
وصاحب النصر اذا عم الفزع
وكاشف الخطب اذا الامر وقع
ما انت فى الحرب العوان بالجذع (١)
قد جزع القوم وعموا بالجزع
وجرعوا الغيظ ، وغصوا بالجرع
ان تسقنا الماء فليست بالبدع
أو نعطش اليوم فجند مقتطع
ما شئت خذ منها ، وما شئت فدع

فقال له الاشتر :

ادن منى يا حارث .

فدنا منه ، فقبل رأسه ، وقال :

لا يتبع رأسه اليوم الا خير ...

ثم صاح الاشتر فى أصحابه قائلا :

فدتكم نفسى ، شدوا شدة المحرج الراجى للفرج ، فاذا نالتكم الرماح فالتووا فيها ، فاذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه ، فانه أشد لشئون الرأس (٢) ، ثم استقبلوا القوم بهامكم (٣) .

وهذا المجاهد المقاتل المناضل ، الذى كان يطيح برءوس أعدائه فى الحرب ذات اليمين وذات الشمال وكان يخافه الناس فى الميدان ، ويفرون من لقائه ،

---

(١) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة . والجذع : الصغير السن .

(٢) الشئون هنا : جمع شأن ، وهو موصل قبائل الرأس . والهام : جمع هامة وهو الرأس .

(٣) شرح ابن ابى الحديد ، ج ١ ص ٧٢٦ .

نراه انسانا رقيق العاطفة نبيل الشعور سريع التأثر بالكلمة البليغة ، فيستجيب لرجائها ، ويكون عند ظن قائلها .

لقد كلف الامام على بن طالب الاشتر النخعى بمقاتلة رجل يقال له : الاصبغ بن ضرار الازدى ، واستطاع الاشتر ان يأسره بغير قتال ، وجاء به ليلا فشده وثأقا ، وتركه حتى الصباح ، وكان الاصبغ شاعرا مفوها ، فأيقن انه مقتول ، فرفع صوته حتى يسمعه الاشتر ، فقال :

الا ليت هذا الليل أصبح سرمدا
على الناس لا يأتيهم بنهار
يكون كذا حتى القيامة ، اننى
أحاذر فى الاصباح يوم بوارى
فياليل أطبق ، ان فى الليل راحة
وفى الصبح قتلى ، أو فكاك اسارى
ولو كنت تحت الارض ستين واديا
لما رد عنى ما أخاف حذارى

فيا نفس مهلا ، ان للموت غاية
فصبرا على ماناب يا ابن ضرار
أ أخشى ولى فى القوم رحم قريبة
ابى الله أن أخشى و « مالك » جارى
ولو انه كان الاسير ببلدة
اطاع بها ، شمرت ذيل ازارى
ولو كنت جار الاشعث الخير فكنى
وقل من الامر المخوف فرارى
وجار سعيد ، أوعدى بن حاتم
وجار شريح الخير ، قر قرارى

وجار المرادى الكريم ، وهانىء
وزحر بن قيس ، ما كرهت نهاري
ولو أنني كنت الاسير لبعضهم
دعوت فتى منهم ففك اساري
أولئك قومى لا عدمت حياتهم
وعفوهم عنى ، وستر عوارى

فتأثر الاشتر بأبياته ، وذهب الى الامام على وقال له :

يا أمير المؤمنين ان هذا رجل أصبته أمس ، وبات عندنا الليل ، فحركنا بشعره ، فان ساغ لك العفو عنه فهبه لنا .

فقال الامام على : هو لك يا مالك ! ..

***

ولما كان أهل الباطل لا يطيقون الصبر على ضياء الحق ، فان المفسدين فى الارض يقفون لأهل النضال بالمرصاد . وكذلك كان الامر مع البطل الفاتح : مالك ابن الحارث الاشتر النخعى ، فان الامام عليا ولاه على مصر ، فترصد له الاعداء فى طريقه ، ودسوا عليه رجلا خائنا يسمى « الجايستار » من أهل الكتاب ، فخدع الاشتر ، وقدم اليه شربة من عسل وضع فيها سما ، وهو يتظاهر بخدمة الاشتر واكرامه ، فمات الاشتر مسموما بها رضوان الله تبارك وتعالى عليه (١) .

وروى من بعض الوجوه ان الاشتر قتل بمصر بعد قتال شديد ، ولكن الصحيح انه مات مسموما قبل

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٠٤ .

أن يبلغ مصر (١) .

ولمـا علم الامام على بمصرع الاشتر قال : « انا لله وانا اليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين ، اللهم انى أحتسبه عندك ، فان موته من مصائب الدهر ، رحم الله مالـكا ، فلقد وفى بعهده ، وقضى نحبه ، ولقى ربه، مع اننا قد وطنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانها من أعظم المصيبات » (٢) .

ثم كتب الامام على رسالة الى محمد بن أبى بكر ، وفيها يقول عن الاشتر يرثيه :

« ... الا ان الرجل الذى وليته مصر ، كان رجلا لنا مناصحا ، وهو على عدونا شـديد ، فرحمة الله عليه ، فقد استكمل أيامه ، ولاقى حمامه ، ونحن عنه راضون ، فرضى الله عنه ، وضاعف له الثواب ، وأحسن له المـآب » (٣) .

وكانت وفاة الاشتر سنة سبع وثلاثين للهجرة ، أو سنة ثمان وثلاثين ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ما أحوج الامة المؤمنة الى أن تتعلم روائع الدروس من أمثال تلك النفوس ، لتؤدى زكاة نفوسها بالجهاد، وزكاة أيديها بالمـال ، وزكاة عقولها بنشر العلم، وزكاة قلوبها بتوطيد الايمان فيها مع ذكر الله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب».

(١) شرح ابن أبى الحديد ، ج ٢ ص ٢١٢ . وقد جاء فى كتاب « العبر » للذهبى عن الاشتر : « يقال انه سم ، وكان الاشـتر من الابطال الكبار ، وهو سيد قومه وخطيبهم وفارسهم » ج ١ ص ٤٥ .

(٢) شرح ابن أبى الحديد ، ج ٢ ص ٢١٢ .

(٣) المرجع السابق . ص٢١٤ . وانظر تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٩٧ .

المناضل المعمّر

أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني

من حقائق الاسلام البديهية ان الله تبارك وتعالى جعل الدنيا دار عمل ولا حساب فيها ، وجعل الآخرة دار حساب ولا عمل فيها ، وذلك ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الصالح والطالح ، ويرتب على ذلك ـ بعدله وفضله ـ أمر الثواب والعقاب ، ومن هنا قال الحق سبحانه فى سورة التوبة : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

ولقد علم الاسلام اتباعه ان الثبات على المبدأ ، والدوام على الصراط ، والاستمرار فى الطاعة ، هو شعار الذين رضى عنهم ربهم ، وتقبل منهم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الاعمال الى الله تعالى أدومها وان قل » . وقال : « خيركم من طال عمره وحسن عمله ، وشركم من طال عمره وساء عمله » .

واذا كنا نرى فى تاريخ صدر الاسلام شبابا أفضوا الى ربهم مجاهدين مخلصين ، وهم فى ربيع العمر وضحوة الحياة ، فاننا نرى من ورائهم كذلك شيوخا امتدت بهم أعمارهم ، وتواصلت منهم أعمالهم الصالحة ، فما انحرفوا ، ولا اعتسفوا ، وما بدلوا تبديلا .

وهـذا واحد منهم ، يبلغ المائة أو يزيد ، ومع ذلك يظل تقيا وفيـا ، حتى يلقى ربه على خير ما استطاع من طاعة ونضال : انه الصحابى الجليل ، أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثى الـكنانى ، الذى ولد يوم غزوة أحد ، وكأن هـذا كان رمزا الى ما ينتظره من حيـاة الـكفاح والنضال ، فهو قد ولد على صوت قعقعة السلاح وضربات السيوف وطعنـات الرماح .

وكان أبوالطفيل رضىالله عنه شاعر قبيلته «كنانة» ، ويقول ابن عبد البر فى « الاستيعاب » انه كان شـاعرا محسنا (١) ، وكان فارس قبيلته ، ومن ذوى السيادة فيها . ولقد رأى أبو الطفيل النبى عليه الصـــلاة والسلام وهو فتى يافع ، وأدرك من حياة النبى ثمانى سنوات ، وروى عنه جملة أحاديث ، وكان آخر من مات من الصحابة (٢) .

وكان صحابيا عاقلا فاضلا حاضر الجواب ، ومن كلماته الرائعة : « ان لنا دينا لا يميل به الهوى ، ويقينا لاتزحمه الشبهة » (٣) . وأنعم بها من كلمة تدلنـا على ان المسلمين الاصحاء لايجعلون دينهم خاضعا لهواهم ، يقبلون عليه حينما يشاءون ، ويعرضـــون عنه حينما يشاءون ، ويظهرون الاعتـــزاز به حينما يريدون ، ويستخفون بشأنه حينما يريدون ، بل ان لهم يقينـا وطيدا لا تختلط به شبهة ، ولا تعرض له ريبـة ، ولا يزعزعه تردد .

(١) الاستيعاب على هامش الاصابه ، ج ٤ ص ١١٧ .
(٢) الاصابة ، ج ٤ ص ١١٣ . والاستيعاب ج ٤ ص ١١٦ .
(٣) شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٢٥٢ .

وكان أبو الطفيل موصول الجهاد ، وكان يحث قبيلته « كنانة » على الجهاد فى سبيل الله : سبيل الحق والعدل والعزة ، ويقول لها : « طاعنوا وضاربوا » ، ثم يحمل لها لواءها ، ويتقدم صفها ، ويجاهد أمامها ، وهو يردد لها نشيد الوفاء والفداء ، مثل قوله :

قد ضاربت فى حربها كنانه
والله يجزيها به جنانه
من أفرغ الصبر عليه زانه
أو غلب الجبن عليه شانه
أو كفر الله فقد أهانه
غدا يعض من عصى بنانه

وكان هذا الشعر سببا فى تحريض آخرين من المناضلين قادوا وجاهدوا وأنشدوا ، فهذا هو عمير بن عطارد يقود جماعة من تميم — مع أبى الطفيل — ويقول: يا قوم ، انى أتبع آثار أبى الطفيل ، فاتبعوا آثار كنانة ، ثم يتقدم برايته ، ويرتجز فيقول :

قد ضاربت فى حربها تميم
ان تميما خطبها عظيم
لها حديث ، ولها قديم
ان الكريم نسله كريم
دين قويم ، وهوى سليم
ان لم تردهم رايتى فلوموا

وهذا هو قبيصة بن جابر الاسدى يأتى بعد عامر وعمير ، يقود جماعة من بنى أسد ، ويقول لاصحابه : يا بنى أسد ، أما أنا فلا أقصر دون صاحبى ، وأما أنتم فذاك اليكم . ثم يتقدم برايته ويقول :

قد حافظت فى حربها بنو أسد
ما مثلها تحت العجاج من أحد
أقرب من يمن ، وأنأى من نكد
كأننا ركنا ثبير أو أحد
لسنا بأوباش بيض البلد
لكننا المحة من ولد معد (١)

ويندفع رفقاء الجهاد والجلاد نحو الاعداء حتى ينتصفوا منهم ، ويوسعوا فيهم طعنا وضربا ، ويصور أبو الطفيل ذلك بشعره الحماسى المثير فيقول مقدرا جهود القبائل المتلاقية على احتمال البلاء وصدق الفداء :

حامت كنانة فى حربها
وحامت تميم ، وحامت أسد
وحامت هوازن يوم اللقا
فما خام (٢) منا ومنهم أحد
لقينا الفوارس يوم الخميس
والعيد والسبت ثم الاحد
لقينا قبائل أنسابهم
الى حضرموت وأهل الجند (٣)
فأمدادهم خلف آذانهم
وليس لنا من سوانا مدد
فلما تنادوا بآبائهم
دعونا معدا ، ونعم المعد
فظلنا نفلق هاماتهم

---

(١) المحة : الشىء الخالص . (٢) خام : جبن ونكص .
(٣) الجند : احدى الولايات بأرض اليمن .

ولم نك فيهـــا ببيض البـــلد (١)
ونعم الفوارس يوم اللقـــــــــاء
فقـــل في عديد ، وقـــل في عدد
وقل في طعـــــان كفرغ الدلاء
وضرب عظيم كنـــار الوقـــد (٢)
ولـــكن عصـــفنا بهم عصـــفة
وفي الحرب يمن ، وفيهـــا نـــكد
طحنـــا الفوارس وســـط العجاج
وسقنا الزعانف ســـوق النقد (٣)

ولقد كان أبو الطفيل يحب الامام على بن أبي طالب رضي الله عنه ويشايعه ويناصره ، حتى يقول فيه :

وقلنا على لنا والد ونحن له طاعة كالولد

ومع ذلك كان يحفظ حرمة الباقين من خلفاء الرسول الراشـــدين ، ويعرف لهم قدرهم وكرامتهم . كان يثني على أبي بكر وعمر، ويترحم على عثمان ، رضوان الله على الجميع ، وكان لايرتضى تصدعا ، ولا تفرقا بين أبناء الامة المؤمنة الموحدة . وكان يجاهـد مع الامام على ، وشـــهد معه حروبه كلها (٤) ، فلما قال الامام نعمة الشهادة حزن عليه أبو الطفيـــل حزنا شـــديدا ، حتى يروى التاريخ ان معاوية بن أبي سفيان أراد أن يعرف مبلغ حزن أبي الطفيل على الامام الشـــهيد ،

(١) بيض البلد : بيض النعام ، يقال : هو أذل من بيضة البلد .
(٢) الفرغ — بفتحتين — جمع فراغ وهو مصب الدلو ، وسكنت الراء لضرورة الشعر والوقد هو الحطب .
(٣) الزعانف : الجماعات . والنقد : الغنم . وانظر شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٤ . (٤) البداية والنهاية ، ج ٩ ص ١٩٠ .

فاستدعاه اليه وسأله :

كيف وجدك على خليلك أبى الحسن ؟

فأجابه أبوالطفيل : كوجد أم موسى على موسى (١) ، وأشكو الى الله التقصير .

وفى رواية ان معاوية قال له : ما أبقى لك الدهر من ثكلك عليا ؟

فأجابه : ثكل العجوز المقلات والشيخ الرقوب (٢) .

قال معاوية : كيف حبك له ؟

فأجابه : حب أم موسى لموسى ، والىالله أشكوالتقصير

وكان لابى الطفيل ولد يسمى « الطفيل » . والولد سر ابيه ، وقدنشأ هذا الولد فىاسرة مسلمة تعرفالايمان والاحسان ، وتعرف الدين الذى لا يميل به الهوى ، واليقين الذى لا تزحمه الشبهة ، ولذلك نشأ «الطفيل» وهو يعرف طريق الكفاح والنضال ، وشاء الله له أن ينال نعمة الشهادة فى « معركة الزاوية » سنة ثنتين وثمانين للهجرة ، ومعنى هذا انه قد سقط شهيدا وأبو الطفيل فى نحو الثمانين من عمره ، لانه ولد كما عرفنا يوم غزوة أحد ، فى السنة الثالثة للهجرة .

ومع ذلك لم يجزع أبو الطفيل ولم يقنط ، بل احتسب ابنه عند ربه ، وتذكر قول بارئه : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله ، وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات

(١) يقول القران فى سورة القصص : « واصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين »

(٢) المقلات : المرأة التى لا يعيش لها ولد . والرقوب : الرجل الذى لا يبقى له ولد .

من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » .

وقد رثى أبو الطفيل ولده بأبيات رائعة منها قوله :

خلى طفيـــــل على الهم فانشعبا
وهــــد ذلك ركنى هــــدة عجبا
وأخطـأتنى المنـــــايا لا تطــــالعنى
حتى كبرت ، ولم يتركن لى نشـــبا
وكنت بعـد طفيـــل كالتى نضبت
عنه الميـاه ، وفاض المـاء فانقضبا
فاملك عـــزاءك ان رزء بليت به
فلن يرد بكاء المرء ما ذهبـــــــا
وليس يشــفى حزينـــا من تذكره
حر البـكاء اذا ما ناح وانتحبـــا
فان سلـــكت سـبيلا كنت سالـكها
فلا محــالة أن يأتى الذى كتبـــا

والى جوار بطولة أبى الطفيـل وشجاعته روى من رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفـــة من الاحاديث ، كما روى عن أبى بكر وعمر وعلى وحذيفة وابن مسعود وابن عباس وزيد بن أرقم وغيرهم ، وروى عنه كثيرون (١)

ومما يدل على حضـور بديهته وقوة حجته وسرعة اجابته أن معاوية استدعاه وهو فى الحكم وحاوره ليحرجه فقال له : « يا أبا الطفيل ، أكنت فيمن حاصر عثمان ؟ »

فأجابه أبو الطفيل قائلا : لا ، ولكنى كنت فيمن حضره .
فقال معاوية : فما منعك من نصره ؟
فأجابه : وأنت فما منعك من نصره ، اذ تربصت به

---

(١) الاصابة ، ج ٤ ص ١١٣ .

ريب المنون ، وكنت مع أهل الشام ، وكلهم تابع لك فيما تريد ؟

فحاول معاوية أن يتنصل من التبعة ومن مواجهة السؤال ، فقال لابى الطفيل : أو ما ترى طلبى لدمه نصرة له ؟ .. فقال أبو الطفيل : بلى ، ولكن كما قال الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبني
وفى حياتى ما زودتنى زادا

ولقد حاول بعض حكام الامويين أن يكسبوا أبا الطفيل الى جانبهم ، ولكن هيهات ، فقد كانت مأساة استشهاد الحسين بن على – رضوان الله عليهما – جريمة كبرى لا تغتفر فى تاريخ هؤلاء . ولذلك نرى أبا الطفيل يخرج ليطالب بثأر أبى الشهداء ، الذى ضرب أروع الامثال فى الثبات على المبدأ ، والجهاد فى سبيل الحق ، ومقاومة الفساد والجور .

وعانى أبو الطفيل فى حياته كثيرا من الاهوال والمخاطر ، مما عجل ببياض الشيب الى رأسه ، وحينما حسب بعض الناس ان هذا الشيب بسبب تقدم السن عند أبى الطفيل ، صحح لهم فهمهم قائلا :

وما شاب رأسى من سنين تتابعت
على ، ولكن شيبتنى الوقائع

وامتد العمر بأبى الطفيل ثم امتد ، وأدرك عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، فأحس عامر أن نسمة من نسمات الخير تهب على المجتمع فى عهد هذا الخليفة الصالح ، فتمنى من هذا الخير المزيد .

وكأن السنين التى قاربت المائة من عمره قد اثقلته ،

وكأنه رأى نفسه بحاجة الى أن يزداد تعبدا وتقربا من الله ، فاتجه الى مكة حيث أول بيت وضع للناس ، وهناك جاور حول بيت الله تبارك وتعالى .

وأخذ الموت يختطف الباقين من صحابة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ واحدا بعد الآخر، حتى لم يبق على ظهر الارض من هؤلاء الصحابة الاجلاء سوى البطل المجاهد أبى الطفيل عامر بن واثلة الكنانى .

ولذلك كان يقول فى أواخر أيامه : « ما على وجه الارض رجل اليوم رأى النبى صلى الله عليه وسلم غيرى » . وقال أيضا : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ولم يبق على وجه الارض أحد رآه غيرى » (١) . وقال كذلك : « ما بقى على وجه الارض عين تطرف ممن رأى النبى صلى الله عليه وسلم غيرى » (٢) .

وكأنه كان حينئذ يستعرض بتذكره ذلك التاريخ الطويل الجليل الحافل بالمواقف والاعمال : تذكر كيف خرج الى الدنيا ومعركة أحد تدور رحاها. وكيف رأى النبى واستجاب له ، وكيف روى عنه ، وكيف جاهد وكافح ، ومضت عليه كل هذه السنين بسرائها وضرائها.

وانتقل أبو الطفيل الى عالم البقاء سنة مائة من الهجرة ، أو بعد ذلك بسنوات (٣) ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) الاستيعاب ، ج ٤ ص ١١٦ .

(٢) يقول التاريخ : ان أبا الطفيل هو آخر من عاش من الصحابة بالاجماع « انظر البداية والنهاية ج ٩ ص ١٩٠ وكتاب العبر ، ج ١ ص ١١٨ . وتاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ١٨٠ » .

(٣) قيل : سنة مائة ، أو سنة مائة واثنتين ، أو مائة وسبع ، أو مائة وعشر (انظر الاصابة ، ج ٤ ص ١١٣) .

الناسك الشهيد

هرم بن حيان

خلق الله تبارك وتعالى الخلق ، وأجرى بين أيديهم الرزق ، ولم يكن ذلك لهوا ولا باطلا ، لان القرآن المجيد يقول : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وانكم الينا لاترجعون » . بل أراد الله من وراء ذلك ـ وهو أعلم بمراده ـ أن يحس الانسان بذاته ورسالته ، وأن يشكر نعمة الله عليه ، فيحسن العمل فى أولاه ، مع الاستمتاع بما أباحه الله ، ويحسن الاستعداد للقاء مولاه فى آخراه ، حتى يفوز بالنعيم الدائم فى جواره وحماه ، ولذلك قال كتاب الله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض ، ان الله لايحب المفسدين » .

ولقد أخبرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن خير الناس ليس من عمل للدنيا وحدها ونسى الآخرة ، ولا من عمل للآخرة وحدها ونسى الدنيا ، ولكن خيرهم من عمل لهذه وتلك ، وجاء الاثر الاسلامى البليغ يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وقال القائل الحكيم :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا
وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

ولقد شهدت مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام كثيرين ممن أحسنوا المواءمة بين دنياهم وأخراهم ، وأتقنوا العمل للعاجلة والآجلة ، وأعطوا كلا منهما ما

تستحقه من حظ ونصيب ، ذاكرين خير الذكر قول ربهم جل جلاله : « وان الـدار الآخرة لهى الحيوان (١) لو كانوا يعلمون » .

وهذا واحد منهم ، يمثل السعى والزهد ، ويمثل التنسك والجهاد ، ويمثل الوفاء والفداء :

انه التابعى الفاضل ، والقائد الفاتح ، والعـــابد المجاهد ، والناسك المتماسك : هرم بن حيان (٢) العبدى الازدى البصرى ، من بنى عبد القيس ، الذى كان من كبار التابعين النساك .

وفيه يقول المؤرخ ابن سـعد فى الطبقات : « كان ثقة ، وله فضل وعبادة » ج ٧ ص ٩٥ .

وقيل فيه : « أعبد العرب هرم بن حيان صـاحب اويس القرنى » ، وقد نقـل هـذا ابن أبى الحديد فى « شرح نهج البلاغة » ج ٥ ص ٢٣٨ .

وقد عده ابن عدى والعتبى أحد الزهاد الثمانية .

قال العتبى ــ فيما يرويه العقد الفريد ــ : سمعت أشياخنا يقولون :

انتهى الزهد الى ثمانية من التابعين : عامر بن عبـد القيس ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ، وهرم بن حيان ، وأبى مسلم الخولانى ، وأويس القرنى ، والربيع ابن خيثم ، ومسروق بن الاجدع ، والاسود بن يزيد » ج ٣ ص ١٢٠ .

ومع زهد هرم ونسكه وعبادته ، كان أميرا لقبيلته بنى عبد القيس فى الفتوح والمعارك .

(١) الحيوان : أى الحياة الدائمة الخالدة .

(٢) أغلب المصادر تذكره « هرم بن حيان » بالياء المنقوطة بنقطتين من أسفلها ، ولكن تاج العروس يذكره « هرم بن حبان » بالباء المنقوطة بنقطة واحدة ، وقال انه من صغار الصحابة (ج ٩ ص ١٠٣) .

وقد تولى امارة طائفة من الحروب فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، والخليفة عثمان بن عفان ، رضوان الله عليهما ، وذلك فى أرض فارس .

وحاصر هرم هناك مدينة « بوشهر » فى السنة الثامنة عشرة للهجرة ودخلها .

كما كلفه عثمان بن أبى العاص أمير البحرين أن يفتح قلعة « بحرة » وهى من قرى البحرين ، ويقال لها : « قلعة الشيوخ » (١) ، فافتتحها عنوة فى السنة السادسة والعشرين .

وكان هرم رجلا معتدلا متوسطا فى حياته ، لايسرف فى طعام ولا شراب ، ولا يحرص على شىء من توافه الاهواء والرغبات ، وكان أغلب زاده التمر ، يطعمه فى السهل والجبل ، كما يعبر التاريخ (٢) .

وحينما تولى هرم بن حيان بعض الولايات عاهد ربه أن يكون عادلا منصفا بين الناس ، والا يحابى او يمالىء لقرابة أو صداقة أو نسب . ولقد علم عقب توليه الولاية ان افرادا من قومه سيأتون اليه طامعين راغبين فى أن يخصهم بشىء مما فى حوزته وسلطانه ، فأمر هرم بايقاد نار كبيرة من حوله ، لايستطيع احد أن يتخطاها اليه ، ثم جاء القوم فرأوا النار ، فسلموا عليه من بعيد ، فقال لهم بعد رد السلام :

مرحبا بقومى ، ادنوا .

فقالوا له : والله مانستطيع أن ندنو منك ، فقد حالت النار بيننا وبينك .

فرد عليهم قائلا :

---

(١) معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٤٦ .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ص ٧٤ .

فأنتم تريدون أن تلقونى فى نار أعظم منها فى جهنم فيئسوا من تأثيرهم فيه ، فرجعوا (١) .

وكان هرم بن حيان رجلا حساسا مرهف الاحساس، يشعر بالتبعة ويقدر المسئولية ، ويندم ندما شديدا وجيعا حينما يشعر بأنه تسرع فى عقاب . ولقد حدث أن غضب على رجل غضبا شديدا ، فأغلظ له القول، وأمر بعقابه ، ثم ندم ، وأقبل على أصحابه يقول لهم : « لا جزاكم الله خيرا ، ما نصحتمونى حين قلت ، ولا كففتمونى عن غضبى ، والله لا ألى لكم عملا » .

ثم كتب الى أمير المؤمنين عمر يستعفيه من الولاية ، ويقول له : « يا أمير المؤمنين ، لا طاقة لى بالرعية ، فابعث الى عملك » .

وكان هرم يضيق كل الضيق بمن يخالف عمله قوله ، ولذلك قال : « اياكم والعالم الفاسق » أى الذى يعظ ولا يتعظ ، وينصح ولا ينتصح ، ولما سمع عمر بكلمته هذه سأله عما أراد بها ، فقال هرم : « ما أردت الا الخير ، يكون امام يتكلم بالعلم ويعمل بالفسق ، فيشتبه على الناس فيضلون » .

وكان رضى الله عنه يؤمن بأن اخلاص الانسان فى ايمانه وتقواه ، واقباله على الله ، يكون سببا لاقبال الكرام من الناس عليه ، وثقة المؤمنين به ، وحبهم له، لأن ألسنة الصادقين من الخلق هى أقلام الحق .

ولذلك كان هرم يردد قوله : « ما أقبل عبد بقلبه على الله عز وجل ، الا أقبل الله بقلوب المؤمنين اليه ،

---

(١) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ص ٩٦ .

حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم » .

وطالما خشى هرم تغير الزمان وتبدل الناس، وخاف ان يدركه زمان يضيع فيه الحق ، ويفسد فيه الخلق، ومن هنا ردد كثيرا قوله : « اللهم انى أعوذ بك من شر زمان يتمرد فيه صغيرهم ، ويؤمل فيه كبيرهم ، وتقرب فيه آجالهم ، ويرون أعز اخوانهم على المعاصى (أى يرتكبون المعاصى) فلا ينهونهم » (١) .

وطالما ردد الدعاء فقال فيه : « اللهم أخر رجال السوء الى زمن السوء » !

وحينمايسمع الناس منه أمثال ذلك يقولون له : أوصنا. فيجيبهم قائلا : أوصيكم بخواتيم سورة البقرة .

وهو يقصد الآيات الثلاث التى ختمت بها سورة البقرة ، وفيها يقول الحق جل جلاله :

« لله ما فى السموات وما فى الارض ، وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير، آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير ، لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

---

(١) طبقات الشعرانى ، ج ١ ص ٢٥ .

وكأنه يقصد بذلك أن يقول : أوصيكم بحفظ ذلك ، وفهمه ، والعمل به ، والاخلاص فيه ، ولا عجب في ذلك . فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « ان الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنز تحت العرش ، فتعلموهما ، وعلموهما نساءكم وأبناءكم ، فانهما صلاة وقرآن ودعاء » . ويقول : « من قرأ بالآيتين آخر سورة البقرة في ليله كفتاه » . ويقول الامام على كرم الله وجهه : « ما أظن أحدا عقل وأدرك الاسلام ينام حتى يقرأهما » .

ويروى التاريخ انه قيل لهرم بن حيان : أوص .

فقال : قد صدقتني نفسي في الحياة ، ما لي شيء أوصي فيه ، ولكنى أوصيكم بخواتيم سورة النحل(١)

وهو يقصد بخواتيم سورة النحل قوله عز وجل : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وحين ننظر في كلام هرم بن حيان نجد البيان المشرق، والاشارة الواعظة ، والرمز البليغ ، مع ميل ظاهر الى الايجاز والاختصار ، فهو مثلا يقول : « صاحب الكلام بين منزلتين ، ان قصر فيه خصم ، وان اغرق

(١) عيون الاخبار ، ج ٢ ص ٣١٢ .

فيه اثم » (١) . فهو فى الغالب لايعتدل على الصراط ، ولايضمن نيل الحمد على كلامه ، لانه ان لم يتوسع فيه لم ينل شكر الناس عليه ، وان توسع أتى بما ليس بحق فيدركه الاثم والذنب » .

ويقول أيضا : « لم أر مثل النار نام هاربها ، ولم ار مثل الجنة نام طالبها » (٢) . وهى عبارة بليغة أخاذة ، تحذر مستحق العذاب من النار ، لكى يقلع عن أسباب دخولها ، ويواصل الفرار منها ، وتحذر مستحق النعيم فى الجنة ، حتى يظل على الدوام طالبا لها ، مستمسكا بأسباب دخولها .

وحسب هرم بن حيان قدرا أن يكون من بين الرواة عنه الحسن البصرى رضوان الله تعالى عليه .

ومع زهد هرم واستقامته الاخلاقية كتب له الله جل جلاله أن يموت شهيدا ، فقد روى التاريخ انه مات فى احدى غزواته بعد سنة ست وعشرين للهجرة ، وروى ابن سعد فى « الطبقات » انه مات فى غزاة له فى يوم صائف ، فلما انتهوا من دفنه أقبلت سحابة فهطل منها ماء على القبر ثم رحلت (٣) .

ولعلها بشرى ، والله سبحانه أعلم بحقيقة ما كان .

ولحق هرم بن حيان بربه تبارك وتعالى ، بعد أن عاش حياته التى عمرها بصالح القول والعمل ، فسلام عليه فى عباد الله الطيبين الطاهرين : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

---

(١) العقد الفريد ، ج ٢ ص ٢٩٣ .
(٢) كتاب الزهد لابن حنبل ، ص ٢٣١ مطبعة أم القرى .
(٣) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ص ٩٧ . وكتاب الزهد لابن حنبل ص ٢٣١ .

المجاهد الشاعر
أيمن بن خريم الأسدي

لقد عرف التاريخ كثيرا من الشعراء القوالين ، الذين يجيدون تشقيق المقال فى كل مجال ، والذين يبرعون فى تصوير البطولات المتخيلة ، والامجاد المدعاة ، والذين يتحدثون عن أنفسهم ، فيصورونها نماذج فريدة ، أو وحيدة ، للشجاعة والاقدام ، مع انه ليس لهم من كل هذا فى دنيا الحقيقة نصيب مذكور .

ولعل هذا هو السر فى أن يقول القرآن الكريم فى سورة الشعراء : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون» .

ولكن التاريخ عرف أيضا قلة من الشعراء المؤمنين الصادقين مع الله ، ومع أنفسهم ، ومع الناس ، حيث جمعوا بين بطولة الكلام وبطولة الحسام ، وجمعوا بين صدق القول وصدق العمل ، وكأن هذه القلة هى التى استثناها العليم الخبير ، فأخرجها من جموع الشعراء الغاوين فقال : « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » (١)

(١) انظر كتابى « سلاح الشعر » فصل « القرآن والشعر » ، صفحة ٦٥ ـ ٨٠ .

وفى وسط هذه القلة الكريمة المجيدة ، نلمح اسم صحابى مناضل ، جمع بين الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والفروسية الباهرة ، وهو الصحابى الجليل، العابد المجاهد ، أيمن بن خريم بن فاتك بن الاخرم بن شداد الاسدى ، الذى يقول عنه ابن سعد فى الطبقات الكبرى هذه العبارة : « كان أيمن شاعرا فارسا شريفا » .

وكان والده — وهو خريم بن فاتك — من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، وقد شهد غزوة بدر مع أخيه سبرة بن فاتك ، وقيل ان خريما أسلم يوم فتح مكة ، ولكن الصحيح انه بدرى ، شهد غزوة بدر (١) ، وقد صحب النبى صلى‌الله عليه وسلم، وروى عنه أحاديث ، وجاهد معه جهادا طويلا ، وقد عده بعضهم فى أهل الصفة ، وترجم له فى التهذيب ، والاصابة ، وتاريخ حلب لابن العديم (٢) .

ويبدو أن خريما كان رجلا لينا رحيما ، ولذلك جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى على رجل قد قطعت يده فى سرقة ، وهو فى فسطاط ، فقال : من آوى هذا المصاب ؟

فقالوا : خريم بن فاتك .

فقال : اللهم بارك على آل فاتك كما آوى هذا المصاب (٣) .

وأم أيمن بن خريم هى : الصماء بنت ثعلبة بن عمرو الاسدية .

---

(١) أسد الغابة ، ج ١ ص ١٩٢ . وتهذيب الاسماء واللغات ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) التحفة اللطيفة ج ٢ ص ١٦ .

(٣) النهاية لابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٤٦ .

ونشأ الفتى أيمن على طريقة أبيه ، وهو شامى الاصل نزل الكوفة ، وقد أسلم عام الفتح وهو فتى يافع ، فازدانت به شبيبة الاسلام ، لما كان يتحلى به من عقل راجح ، ولسان مبين ، وشاعرية متوقدة ، ورغبة فى الجهاد والنضال ، ومع هذا كان ذا عمل صالح ، وكان يروى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان كان صاحب « أسد الغابة » قد أورد هذه العبارة : « قال الدارقطنى : روى أيمن عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما أنا فما وجدت له رواية الا عن أبيه وعمه . أخرجه الثلاثة » (١) .

ولقد روت السنة أن أيمن بن خريم سمع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يخطب ذات يوم فيقول: «أيها الناس ، عدلت شهادة الزور الاشراك بالله (ثلاثا) . ثم تلا قوله عز من قائل : « فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به»

وكأن سماع أيمن لهذا التوجيه النبوى الحكيم كان عظة له فى قوله وشعره ، حتى لايقول فى شعره باطلا ولا يشهد به زورا ، فيجعل الجبان الرعديد بطلا صنديدا ، والبخيل الشحيح كريما مسماحا ، والداعر الاثيم تقيا صالحا ، كما يفعل الكثير من الكذبة المفترين ، الذين شوهوا جبين التاريخ ، ولطخوه بالمفتريات والاكاذيب .

وحرص رسول الله عليه الصلاة والسلام على توجيه أيمن بن خريم الى طريق الحق والهدى والاستقامة ، كما فعل مع أبيه خريم من قبل ، فقد روت السيرة

(١) أسد الغابة ، ج ١ ص ١٩٣ .

العطرة ان النبى صلوات الله وسلامه عليه لاحظ على خريم انه يعنى بتجميل صورته وشكله ، ويسرف فى ذلك بعض الشىء ، حتى يجعله ذلك يبـدو كالمنعمين المترفين اللاهين ، فقال له ذات يوم وقد رآه فى زينته: يا خريم .

فقال له : لبيك يا رسول الله .

فقال له : لولا خلتان (خصلتان) فيك كنت أنت الرجل (اى الرجل الـكامل من كل وجه) .

فسأل خريم فى لهفة وحرص على اصلاح عيبه وعودته الى الحق : وما هما بأبى وامى يا رسول الله ؟

قال له : « توفى شعرك ، وتسبل ازارك ». اى تطيل شعرك أكثر من اللازم ، وتطيل ثوبك حتى يلمس الارض وتجره وراءك .

فما كان من خريم الا أن سارع بلا ابطاء فجز شعره وقص ازاره .

ولم لا يفعل ، ولم لا يسارع فى ذلك قدر طاقته ، وربه العلى الاعلى هو الذى يخاطب المؤمنـين قائلا : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لمـا يحييكم ، واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه ، وانه اليه تحشرون » ؟ !

***

وكان أيمن بن أخرم يقول الشعر فى الحكمة والعظة والعبرة ، واذا كان بعض هـذا الشعر قد ابتعـد عن صراط الحكمة أحيانا ، لهذا السبب أو ذاك ، فانه قد أيدها وناصرها أحيـانا واحيـانا ، ولم يقتصر أيمن الشاعر المؤمن على القصـائد ينظمها وينشدها ، ولم يكتب شعره بالقلم وحده ، بل نظم شـعرا آخر أمجد

واخلد ، نظم شعرا بحسامه وسنانه ، حيث شارك فى كثير من مواقف الفداء والوفاء ، وغزا فيما غزا مع يحيى بن الحكم (١) .

وكان يحاول قدر طاقته ان يجعل ضربة سيفه موجهة الى أعداء الله وأعداء عباده ، وكان يحذر كل الحذر أن يشارك فى فتنة ، أو يقر حربا أهلية ، ولذلك بلغ به الالم مبلغه حين نزغ الشيطان بين المسلمين ، فجعل بأسهم بينهم شديدا ، فتحزبوا وتعصبوا وتحاربوا ، ولقد تودد اليه زعيم طائفة تقاتل أخرى ، وكلهم ينتسبون الى الاسلام ، وطلب منه ذلك الزعيم أن ينضم الى صفه فى محاربة تلك الطائفة الاخرى ، فأبى أيمن ذلك كل الاباء ، وقال له : ان أبى وعمى شهدا بدرا ، وانهما عهدا الى أن لا أقاتل احدا يشهد أن لا اله الا الله ، فان جئتنى ببراءة من النار قاتلت معك .

ثم أنشد فى ذلك شعرا منه قوله :

ولست مقاتلا رجلا يصلى
على سلطان آخر من قريش
له سلطانه ، وعلى وزرى
معاذ الله من سفه وطيش
أ أقتل مسلما ، وأظل حيا
فليس بنافعى ما عشت عيشى

ولعله كان يتذكر خير التذكر قول ربه : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » .

ولأيمن أبيات تصد عن الفتنة ، وتنهى عن اقترابها ،

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ج ١ ص ٤٥٢ .

وتنصح بالابتعاد عنها ، فيقول :

ان للفتنـــــــــة ميطا بينـــا (١)
فرويد الميط منهـــــا تعتـــــدل
فاذا كان عطـــــــــــاء فأتهم
واذا كان قتـــــــــــال فاعتزل
انما يســـــعرها جهـــــــالها
حطب النـــــار ، فدعها تشتعل (٢)

وله فى وصف طبائع النســـاء شعر يدل على خبرة وصرامة ، ومنه قوله :

لقيت من الغانيــــــــــات العجابا
لو أدرك منى العذارى الشــــــبابا
ولـــكن جمع العـــــذارى الحسان
عنـــاء شـــديد اذا المرء شـــابا
يرضن بكل عصـــــــــا رائض
ويصبحن كل غداة صـــــــــعابا
علام يكحلن نجل العيـــــــــون
ويحدثن بعد الخضـــاب الخضـــابا
ويبرقن ، الا لمـــــــــــا تعلمون
فلا تحرموا الغانيـــــــات الضرابا
اذا لم يخالطن كل الخـــــــــلا
ط أصبحن مخرنطمات غضـــابا (٣)
يميت العتـــاب خـــلاط النســـاء
ويحيى اجتنـــاب الخلاط العتـــابا

---

(١) جورا ظاهرا .

(٢) الشعر والشعراء ، ج ١ ص ٥٤١ .

(٣) مخرنطمات : جمع مخرنطمة ، وهى الغاضبة المتكبرة .

وقد أنشد أيمن هـذه الأبيات لعبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك : ما عرف النســاء أحد معرفتك ، وما وصف احد النساء مثل صفتك .

فقال له : لئن كنت صادقا فى ذلك لقد صدق الذى يقول :

فان تسـألونى بالنسـاء فاننى
بصير بأدواء النسـاء طبيب
اذا شـاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له فى ودهن نصيـب
يزدن ثراء المـال حيث علمنه
وشرخ الشبـاب عنـدهن عجيب (١)

ولقد كان يقال لأيمن بن خريم « خليـل الخلفاء » لانهم كانوا يحبون مجالســته ، ويعجبون بحديثـه وفصاحته وعلمه ، مع انه كان مصابا بالبرص .

وكان كثير المجالسة للأمراء ، وكان أثيرا عنـد عبد العزيز بن مروان .

***

وظل المجاهد الشاعر أيمن بن خريم الاسدى بعيدا عن الوقوع فى الفتنة ، حريصا ما استطـاع على جمع الـكلمة وصيانة الامة ، حتى لقى ربه عز وجل ، عابدا مناضلا ، مجاهدا مقاتلا ، رضوان الله تعالى عليه .

توفى نحو سنة ثمانين للهجرة .

---

(١) انظر الشعر والشعراء ، ج ١ ص ٥٤٢ . وعيون الاخبار ، ج ٤ ص ١٠٢ ، والأبيات الثلاثة لعلقمة بن عبدة .

المجاهد فوق الأمواج

فضالة بن عبيد الأنصاري

نجد فى الاســـلام بيعتين : الاولى بيعة الدخول فى الدين ، والاخرى بيعة الجهاد فى سبيل الله (١) ، والبيعة كلمة مأخوذة فى اللغة من مادة « البيع » ، والبيــع فى الاصل هو مبادلة مال بمال ، أوشىء بشىء ، والمبايعة هى المعاهدة ، وكأن الطرفين فيها يتبايعان ويتبادلان.

وهــذا المعنى ملحوظ فى البيعة الدينية الاسلامية ، فــكأن المسلم يبيع نفسه وجهــده لربه ، فى مقابل أن يرضى عنه ويوفقه ، ويكتب له عنــده الثواب الخالد والنعيم المقيم ، ومن هنا قال الحق جل جلاله : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »

وفى سبيل هـــــذه البيعة أو المبايعة يضحى المؤمن بمتاع الحياة فى سبيل الله ، ويؤثر ما عند ربه على ما تحويه يداه ، ولذلك يترك أعمال البيع والشراء ، وهى أهم شاغل للناس ، وأقوى محرك لدولاب الحياة ، كى يجيب النــداء يوم الجمعة ويحرص على الصـــلاة : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلــكم خير لــكم ان كنتم تعلمون » . ووصف الله تعالى الأبرار الاخيار

---

(١) هناك بيعة ثالثة ، هى بيعة المسلم لولى الامر الشرعى (وهو الخليفة أو الامام) ولهذه البيعة حديث خاص يأتى فى مقامه .

من عباده بأنهم « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار » .

واذا كانت بيعة الدخول فى الاسلام قد أعلنها كل صحابى مؤمن لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، معاهدا أن يعبد الله وحده لايشرك به شيئا ، وأن يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت ان استطاع اليه سبيلا ، وأن يحل ما أحله الله ، وأن يحرم ما حرمه ، فان مجموعة كريمة عظيمة من صحابة رسول الله قد بايعوه بيعة أخرى لها مكانتها ومجادتها فى الاسلام ، وهى بيعة الجهاد والكفاح ، أو بيعة البذل والتضحية ، أو بيعة الوفاء والفداء ، أو بيعة الجهاد حتى الاستشهاد ، أو ـ بتعبير السيرة العطرة ـ بيعة الرضوان .

وهى البيعة التى يقول فيها الحق جل جلاله : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » .

ويقول عنها أيضا : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا » .

ولقد ظل هؤلاء الذين بايعوا الرسول بيعة الرضوان كواكب تتألق على طريق المسيرة الاسلامية المجيدة عبر القرون ، حيث صانوا عهدهم ، وحفظوا وعدهم ، وصدقوا مع ربهم ، ومضوا الى لقائه الكريم عناوين مضيئة لاهل الوفاء والفداء ، وما بدلوا تبديلا .

وهذا واحد من هؤلاء :

بايع بيعة الاسلام ، فكان للاسلام وفيا أمينا ، وبايع بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان فدائيا مجيدا .

انه الصحابى الجليل ، المجاهد فى البر والبحر، فوق التراب وفوق الامواج ، المناضل فى الجزيرة والشام ومصر : أبو محمد فضالة (١) بن عبيد بن نافذ بن قيس ابن صهيب بن الاحرم بن جحجبا (٢) بن كلفة بن عوف الانصارى الاوسى العمرى ، الذى دخل فى الاسلام مخلصا موقنا .

وتروى بعض المصادر (٣) انه شهد غزوة بدر ، فان صحت الرواية فقد فاز فوزا عظيما .

ومن الثابت الاكيد انه شهد غزوة أحد وما بعدها من المشاهد ، ومن بينها غزوة الحديبية التى بايع فيها بيعة الرضوان ، وهى البيعة التى قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم لاهليها : « أنتم خير أهل الارض » .

وقال عنهم : « لايدخل أحد النار أن شاء الله من أصحاب الشجرة التى بايعوا تحتها » .

وسمعت منه ذلك أم المؤمنين حفصة ، فقالت كالمعترضة : بلى يا رسول الله (أى سيدخلونها) .

فانتهرها النبى ، فرددت قول الله تعالى : « وان منكم الا واردها » .

فرد عليها النبى قائلا : قد قال تعالى : « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » أى باركين على

(١) فضالة ــ بفتح الفاء والضاد ــ كما ضبطها النووى فى « تهذيب الاسماء واللغات » ج ٢ ص ٥٠ . وقد ورد الاسم مضموم الفاء فى مواضع من تاريخ الطبرى ، فليصحح الضبط .

(٢) جحجبا ــ بجيمين مفتوحتين بينهما حاء ساكنة ــ تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ٥٠ .

(٣) التاج ، ج ٨ ص ٦٢ .

ركبهم لشدة الهول .

ويقول البراء بن عازب عن بيعة الرضوان : « تعدون الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية » (١) .

ويقول عبد الله بن مسعود : « انكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية » وقد كان الصلح عقب بيعة الرضوان .

ويقول جابر : « ما كنا نعد الفتح الا يوم الحديبية » .

وحول هذه البيعة ونتائجها نزلت سورة الفتح وفى أولها : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا ، هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، ولله جنود السموات والارض وكان الله عليما حكيما ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » .

وقد اشترك فضالة بن عبيد فى فتح مصر (٢) باسم الاسلام ، فكان أحد أصحاب الفضل علينا ـ نحن أبناء الكنانة ـ بعد فضل الله الاكبر ، حيث حملوا الينا دعوة الخير وعقيدة الحق ، ونور الايمان الذى هدانا الله به سبل السلام ، وأخرجنا به من الظلمات الى النور .

ثم سكن فضالة الشام ، وجاهد فيها وحولها بعد أن شهد فتحها ، وفى سنة تسع وأربعين للهجرة قام

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ٣٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٧٨ . وتهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ٥٠ .

فضالة بغزوة بلدة « جربة » أو « جربة » ، وهى بلدة بالمغرب لها ذكر كثير فى الفتوح ، وقد غزا فيها رويفع ابن ثابت ، وقيل هى جزيرة بالمغرب من ناحية افريقية قرب « قابس » ، وفيها بساتين كثيرة (١) .

وقد فتحت « جربة » على يدى فضالة ، وأصاب فيها مغانم كثيرة ، وأعلى بها كلمة الاسلام ، ويروى التاريخ انه ما شتى — أى غزا فى الشتاء — بهذه السنة الا الصحابى الجليل : فضالة بن عبيد (٢) .

وفى سنة خمسين للهجرة أخذ فضالة فى غزوات البحر (٣) ، حيث ولاه الخليفة قائدا وأميرا على المجاهدين ضد الروم فى البحر الابيض المتوسط ، وهو الذى ظل حينا طويلا من الزمن يسمى « بحر العرب » ، لسيطرة المسلمين عليه ، وتأمينهم لجوانبه بأساطيلهم ومجاهديهم ، وشتان شتان بين الماضى والحاضر .

وفى سنة احدى وخمسين كان مشتى فضالة بن عبيد بأرض الروم (٤) .

وهكذا جاهد فضالة بن عبيد فى وسط الجزيرة العربية ، وجاهد فى شمالها فى بلاد الشام ، وجاهد فى شمال افريقية ، حيث شارك فى فتح مصر ، وجاهد فى البر والبحر ، ولم يكن مجاهدا عاديا ، بل كان قائدا وأميرا ، وأن العظائم كفؤها العظماء .

وكما كان هذا المجاهد الكبير وفيا لبيعة الجهاد

---

(١) معجم البلدان لياقوت ، ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) أنظر النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٧ و ١٣٨ . وتاريخ الطبرى ج ٥ ص ٢٣٢ . والبداية والنهاية ، ج ٨ ص ٣٢ .

(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٤٥ . وتاريخ الطبرى ج ٥ ص ٢٣٢ . وتهذيب الاسماء ج ٢ ص ٥٠ . (٤) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ص ٢٥٣ .

والرضوان ، بمواصلة القتال والنضال ، فى كل موطن ومجال ، كان وفيا لبيعة الاسلام باليقين والاخلاص ، وتطهير الحس مع تطهير النفس ، وثبات الاخلاق مع ثبات الاشباح ، والازدياد من العلم والفقه ، فقد كان فضالة من رواة الاحاديث النبوية ، حتى روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسين حديثا ، وقد روى عنه جماعة من الاعلام ، منهم ثمامة بن سعد ، وعلى بن رباح ، وحنش الصنعانى ، وسلمة بن صالح ، وعمرو بن مالك ، وعبدالله بن محيرز ، وآخرون (١)

وتولى قضاء دمشق حينا من الزمن (٢) ، والقضاء فى الاسلام منصب ذو جلال وخطر ، وانما يتولاه العالم الفقيه البصير بشئون مجتمعه وقومه ، الخبير بالحلال والحرام

وهكذا جمع فضالة بن عبيد بين بطولة الميدان وبطولة العلم والايمان ، ولعله من اللافت للفكر والبصيرة ان فضالة هو الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « المجاهد من جاهد نفسه » .

ولا شك ان من ينجح فى اصلاح نفسه ومجاهدتها يغدو صالحا لاتقان الجهاد فى كل مجال ، لانه سيحمل نفسه راضية مؤمنة على مواقف الوفاء والفداء باستمرار ، ولعل هذا هو السر فى تكرار السنة المطهرة التعبير عن هذا المعنى ، فجاءت فيها هذه الاحاديث :

١ ـ جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم .

٢ ـ أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه .

٣ ـ أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك فى سبيل ذات الله تعالى ..

---

(١) تهذيب الاسماء ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ص ٢٥٣ . وتهذيب الاسماء ج ٢ ص٥٠ .

٤ ـ قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ، مجاهدة العبد هواه (١) .

وقد ظل هـذا البطل المغوار ـ فضالة بن عبيد ـ يجاهد نفسه ، ويجاهد عدو دينه ، ويناضل من أجل اسلامه ، ويبذل فى سبيل ربه ، حتى لحق به سنة ثلاث وخمسين للهجرة رضوان الله تبارك وتعالى عليه.

وهناك أكثر من قول فى تحديد السنة التى توفى فيها فضالة . .

روى انه توفى كما سبق سنة ثلاث وخمسين ، هكذا جاءت الرواية فى « تهذيب الاسماء واللغات » ، وفى « البداية والنهاية » وفى « الاعلام » (٢) .

وقيل انه توفى سنة أربع وخمسين . روى ذلك صاحب « النجوم الزاهرة » (٣) .

وقيل توفى سنة سبع وستين أو تسع وستين (٣) ، ولكن النووى يقول ان الصحيح هو القول الاول ، لانهم نقلوا ان معاوية حمل نعش فضالة ، وقال لابنه : أعنى يا بنى ، فانك لا تحمل بعده مثله . ومعاوية توفى سنة ستين .

سلام على فضالة بن عبيد فى الابرار الخالدين .

---

(١) انظر درجات هذه الاحاديث فى تفسير المنار ج ١٠ ص ٣٦١ .

(٢) انظر تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ٥٠ والبداية والنهاية ج ٨ ص ٧٨ . والاعلام ج ٥ ص ٣٥٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٤٦ .

(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٧٨ وتهذيب الاسماء ج ٢ ص ٥٠ .

فـارس رسـول اللـه

أبو قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري

اذا كان للأمة المؤمنة المجاهدة صفات تحدد معالم ذاتها ، ومقومات تبرز ملامح شخصيتها ، فان أهم هذه الصفات وتلك المقومات أن تتجلى فى الامة روح الفروسية القائمة على الهمة والعزيمة ، واليقظة والاستعداد ، وعدم التردد فى مواطن الاقدام ، والترفع عن الدنايا والآثام ، والثبات على المبدأ ، والاعتزاز بالايمان .

ولعل القرآن المجيد قد رمز الى هذه الصفات والملامح حين قال عن مجموعة خيرة من عباد الله عز وجل : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض ، لن ندعو من دونه الها ، لقد قلنا اذن شططا » .

ولقد كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم أمة تجلت فيها الفروسية المؤمنة الراشدة ، وكان من حول الرسول مجموعة من الفرسان الميامين الذين أحاطوا به ودافعوا عنه ، وسبقوا غيرهم فى استجابة ندائه كلما جد الجد ، وحانت ساعة الكفاح ، فهم يأتون فى طليعة من يعنيهم الرسول بكلمته الرائعة وهتافه المثير : « يا خيل الله اركبى » . لانهم خير من تدبروا قول ربهم المحذر: «ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم

وأمتعتكم فيمليون عليكم ميلة واحدة » وتأثروا بقول رسولهم المبشر عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار اليها».

***

وفى الصف الاول من هؤلاء يأتى فارس الاسلام ، وفارس رسول الاسلام : محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو الصحابى الجليل ابو قتادة الحارث بن ربعى بن بلدمة بن خناس بن سنان بن عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة الخزرجى السلمى الانصارى (١) ، الذى قال أبو سعيد الخدرى عنه : « أخبرنى من هو خير منى أبو قتادة الانصارى » .

وأبو قتادة هو الذى قال : « والله ما غضبت الا لله ولرسوله » . وهذا معناه انه قد أخلص وجهه وحسه ونفسه لله عز وجل ، ولمولاه رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، فهو لايناضل ولا يقاتل ، ولا يغضب ولا يثور ، لعرض من أعراض الدنيا ، ولا لغرض من أغراض الحياة ، وانما هو قد باع نفسه لخالقه عز علاه : «وما عند الله خير للأبرار » .

وقد شهد ابو قتادة غزوة أحد وما بعدها من المشاهد والغزوات (٢) ، وثبت الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم مناضلا ومدافعا وفاديا ، وكان أحد خمسة من الفدائيين الانصار الذين بعث بهم رسول الله للتخلص من عدو الله الاكبر اليهودى الطاغية الاثيم : أبى رافع سلام بن أبى الحقيق الذى حزب الاحزاب

(١) اختلفوا فى اسمه ، فقيل انه الحارث ، وقيل انه النعمان ، وقيل انه عمرو ، ولكنه مشهور بلقبه وهو « أبو قتادة » .
(٢) وقيل انه شهد غزوة بدر ، ولكن هذا القول فيه نظر .

ضـــد المسلمين ، والب الجموع ضـــد الرسول ، وكاد للاسلام مكائد خسيسة ، وقد وفق الله ولى التوفيق هؤلاء الخمسة ، فتم مصرع الطاغية على أيديهم(١) .

ثم بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم قائدا لسرية قوامها خمسة عشر فدائيا الى قبيلة « غطفان » المشركة المعادية ، لتأديبها والنيل منها ، فكان أبو قتادة يسير بجنوده ليلا ويكمنون نهارا ، لتتحقق سرية العمـــل الفدائى ، وتتم المباغتة اللازمة فى الهجوم ، ثم انقضوا على أعدائهم فجأة ، وأحاطوا بهم وأوســعوهم رميــا وطعنا ، وغنموا منهم غنيمة كبيرة قوامها مائة بعير وألفان من الغنم .

ثم بعثه الرسول عليه الصلاة والسلام قائدا لسرية عددها ثمانية الى « بطن اضم » ، عندما هم الرســول بفتح مكة ، وكان يقصد من توجيه هذه السرية التغطية والتعمية ، ليظن المشركون ان الرســول يتجه بجيشه الى تلك الناحية ، فتتم المفاجأة فى فتح مكة بلا قتال ولا صـــدام ، على طريقة الحرب الخاطفة حسب تعبير العصر .

وكذلك ابلى ابو قتادة بلاء حسنا فى غزوة «ذى قرد» وهى التى تسمى « غزوة الغابة » أيضا . وكان معه فيها المجاهد البطل سلمة بن الاكوع (٢) : وهى الغزوة التى قال فيها الرسول لاول مرة تلك الـكلمة البليغة : « ياخيل الله اركبى » (٣) . أى يا فرســان خيل الله اركبى ، وكان الرسول يسمى خيل الجهاد «خيل الله»،

---

(١) الدرر لابن عبد البر ، ص ١٩٥ .
(٢) لسلمة بن الاكوع حديث خاص يأتى فى مجال آخر .
(٣) عيون الاثر ، ج ٢ ص ٨٧ وهناك خلاف فى ذلك .

فالكلام على حذف مضاف . وهذا من أحسن المجازات وألطفها .

وقال الرسول لابى قتادة وهو خارج الى هذه الغزوة : « امض يا أبا قتادة ، صحبك الله » ، وكان لبركة هذا الدعاء النبوى الكريم أثره الطيب وثمره الحميد .

وقد وفق الله تعالى أبا قتادة ، فقتل فى أول هذه الغزوة : حبيب بن عيينة المشرك ، وغطاه ببردته ، وواصل نضاله ، ولما رأى بعض المسلمين بردة ابى قتادة ، ظنوه قتيلا فاسترجعوا وأبلغوا ذلك لرسول الله ، ولكن الرسول المؤيد بالحق قال : « ليس بأبى قتادة ، ولكنه قتيل لابى قتادة ، وضع عليه برده ، لتعرفوا انه صاحبه (١) ، والذى اكرمنى بما اكرمنى به ، ان أبا قتادة على آثار القوم يرتجز » .

وكذلك قتل أبو قتادة رئيس المشركين فى هذه الغزوة ، وهو مسعدة الفزارى . وكان أبو قتادة قد اشترى فرسا (٢) ، فأراد مسعدة ان ينافسه عليها ، ويأخذها منه ، ولكن أبا قتادة أبى ذلك ، وقال لمسعدة : أما انى أسأل الله أن ألقاك وأنا عليها .

وكذلك كان ، فقد تلاقى أبو قتادة ومسعدة فى غزوة « ذى قرد » ، وأراد مسعدة أن يكشف عن طغيانه وغروره ، فقال لابى قتادة : مجالدة أو مطاعنة أو مصارعة ؟ !

فرد عليه أبو قتادة مستخفا بتحدى عدوه قائلا : ذلك اليك .

فقال مسعدة : مصارعة !

---

(١) عيون الأثر ، ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) لعل هذه الفرس هى التى كانت تسمى « حزوة » . والفرس هى الانثى من الخيل .

وتصارعا ، وكان الفوز من نصيب أبى قتادة ، فقضى على عدوه .

وأصيب ابو قتادة يومئذ بسهم فى وجهه فلم يبال به ، وعاد الى الرسول بنصر وغنيمة ، فلما رآه الرسول قال : افلح وجهك يا أبا قتادة .

فأجاب : ووجهك يا رسول الله .

ولما راى الرسول السهم قال : ما هذا الذى بوجهك يا أبا قتادة ؟

فأجاب : سهم أصابنى .

فقال له : ادن منى .

فدنا منه ، فنزع النبى السهم ، ومس مكانه بريقه ، ووضع عليه يده قليلا ، فزال الالم عن أبى قتادة (١).

ثم جاء موقف التكريم ، فقال الرسول عليه الصلاة والتسليم : « خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة بن الاكوع » .

ثم عاد الرسول يقول لابى قتادة : « أبو قتادة سيد الفرسان » ويقول له : « بارك الله فيك ، وفى ولدك وولد ولدك » !

ومضت الاعوام وأبو قتادة يواصل فى الله تعالى جهاده وكفاحه . وقد شهد مع الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه مشاهده كلها .

وكان أبو قتادة يقدم حق الله تعالى على كل حق ، ومن شواهد ذلك ان كعب بن مالك تخلف عن غزوة تبوك ، دون عذر ، وانما كان تخلفه لامر قضاه الله عز وجل ، ولما عاد الرسول من تبوك ، ذهب كعب بن مالك اليه واعتذر ، واعترف بذنبه ، فنهى النبى

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٢٩ .

الناس عن كلام كعب حتى يحكم الله فيه بأمره ، مع صاحبيه : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

وظل كعب خمسين يوما والمسلمون مقاطعون له ، وكان ابو قتادة ابن عم كعب وأحب الناس اليه ، فطمع كعب فى أبى قتادة ، وذهب اليه لعله يكلمه ويرد عليه.

يقول كعب : « حتى اذا طال على ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ـ وهو ابن عمى ، واحب الناس الى ـ فسلمت عليه ، فوالله مارد على السلام . فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلمنى احب الله ورسوله ؟ فسكت . فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار» (١).

***

ومع ما أظهره ابو قتادة من بطولة موصولة واقدام مستمر فى ميادين الجهاد والنضال ، كان محدثا ، روى طائفة من الاحاديث النبوية عن جملة من الاعلام .

وكما كان ابو قتادة مثلا رائعا فى أدب النفس ، كان عنوانا لجمال الذوق والحس ، فقد كانت له جمة ، أى شعر يسقط على منكبيه . فقال للنبى : يارسول الله ، ان لى جمة ، أفأرجلها يا رسول الله ؟

قال النبى : نعم وأكرمها .

فكان ابو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ولا عجب فقد روى ابن الاثير فى « النهاية » انه كان

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ص ٤٥ .

لرسول الله صلى الله عليه وسلم جمة جعدة (١) .

***

ولحق أبو قتادة بربه ، واختلفت أقوال المؤرخين فى سنة وفاته . قيل انه قتل سنة سبع وثلاثين فى معركة صفين (٢) ، وقيل انه قتل سنة أربع وخمسين (٣) ، وعمره سبعون سنة ، ودفن بالكوفة ، وقيل انه توفى بالمدينة سنة أربع وخمسين ، وقيل انه توفى بالكوفة سنة ثمان وثلاثين ، وصلى عليه الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه (٤) .

ولا يضيرنا هذا الخلاف ، فالذى يعنينا ان أبا قتادة قضى حياته مجاهدا مجيدا ، ولقى ربه مؤمنا حميدا ، عليه رضوان الله .

ان أهل الصدر الاول من المسلمين قد جمعوا ـ كما رأينا ـ بين عقول العلماء وثبات الابطال وأخلاق الملائكة، وسيماء أهل الطهارة والادب ، فليت الاخلاف تمضى على طريق الاسلاف ، لنكون أقوياء فى نفوسنا ، أنقياء فى حواسنا ، أشداء على أعدائنا ، رحماء فيما بيننا .

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

---

(١) النهاية ج ١ ص ٣٠٠ وانظر العقد الفريد ، ج ٧ ص ٢٥٦ .. وجعدة : قوية .

(٢) العبر للذهبى ، ج ١ ص ٤١ .

(٣) العبر ، ج ١ ص ٦٠ (٤) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٦٨ .

المجاهد المغترب

بريدة بن الحصيب الأسلمي

لم يكن القائل الحكيم بعيدا عن عين الحق والصواب حين قال : « ان الحياة عقيدة وجهاد » . فالحياة بلا عقيدة ضرب من المتاع الرخيص والعيش التافه ، والحياة بلا جهاد لون من الجمود او البرود لا يليق بمن كرمه ربه ، واستخلفه فى أرضه وأنعم عليه ، وفضله على كثير من خلقه ، وهيأ له أسباب الحركة والتنقل فى البر والبحر : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وما زالت مدرسة النبوة الطاهرة العامرة الباهرة تعطينا نماذج بعد نماذج من أولئك السابقين الموقنين ، الذين آمنوا بربهم ، واعتزوا بعقيدتهم، واخلصوا لوجه الله خطواتهم ، فساحوا فى جنبات الارض ، يعلون كلمة الله عز وجل حيثما استطاعوا ، ويتحملون آلام الهجرة والاغتراب وشظف العيش ، ريفضلون موت الشهاده فى ثغر بعيد من ثغور الاسلام ، على أن يموتوا فوق فراشهم وبين أهليهم وذويهم : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وهذا واحد منهم ، نراه ما يكاد يلمح أول شعاع من نور الايمان حتى يسارع اليه ، ويتشبث به ، ثم

يترك موطنه مهاجرا فى سبيل ربه ، معرضا رقبته وحياته للسيوف والحتوف ، ثم يظل فى رباط ونضال طيلة حياته ، ثم يتنقل فى جنبات الارض مجاهدا مجالدا ، ثم تدركه منيته وهو بعيد أوسع البعد عن منشئه وموطنه : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

انه الصحابى الفاضل ، والمجاهد المناضل ، والمغترب المختسب : أبو عبد الله (١) بريدة بن الحصيب بن عبدالله ابن الحارث بن الاعرج بن سعد بن رزاح بن عون بن سهم الاسلمى .

وهو من كبار الصحابة ، وممن كانت لهم عدة مشاهد ، ولقد أسلم بريدة قبل غزوة بدر ، ولم يشهدها ، وقيل أسلم بعدها (٢) ، وكان اسلامه فى وقت شديد عصيب ، وهو وقت هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام من مكة الى المدينة ، فقد مر النبى فى طريق الهجرة على مكان يسمى « كراع الغميم » وهو موطن بريدة حينئذ ، وهو موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة ، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال ، وهذا الكراع جبل أسود فى طرف الحرة يمتداليه (٣)

---

(١) وقيل ان كنيته هي أبو سهل ، وقيل : أبو الحصيب ، وقيل أبو ساسان . وقيل ان اسمه عامر . والحصيب : بضم فسكون . انظر تهذيب الاسماء ج ١ ص ١٣٣ . والاعلام ج ١ ص ٤٩ . وفى الاصابة أن اسمه عامر وبريدة لقبه ج ١ ص ١٥٠ . وفى الطبقات : « توفى بريدة بن الحصين » بالنون وهذا تحريف ج ٧ ص ٤ .
(٢) تهذيب الاسماء ج ١ ص ١٣٣ . والتحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٥٦ .
(٣) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٤٣ .

وعند مرور النبى على هـذا المكان خرج بريدة مع ثمانين شخصا من قومه ، وتلقوا رسول الله بالتحية ، وعرض النبى الاسلام على بريدة ، فشرح الله له صدره، وشرح الله كذلك صدور من معه للاســلام ، وعلمهم الرسول كيفية الصلاة ، وصلى بهم صلاة العشاء . ثم علم النبى بريدة صدرا من سـورة مريم ، وسنرى فيما بعد ان الرسول قد علمه بنفسه بقيـة السـورة حينما أقام بريدة معه (١) .

ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما رأى بريدة لأول مرة قال له : من أنت ؟

قال : أنا بريدة .

فقال النبى لابى بكر متفائلا : « برد أمرنا وصلح » ، أى سهل ، لان العرب قد تقول عن الشىء السـهل المرغوب فيه : انه بارد ، وقد جاء فى الحديث : « الصوم فى الشتاء هو الغنيمة الباردة » أى السهلة التى لاتعب فيها (٢) .

وقبل أن يدخل الرسـول المدينة لحق به بريدة فى الطريق ، وقال له : يا رسول الله ، لا تدخلها الا ومعك لواء .

ثم نزع عمامته وفكها ، ثم ربطها فى طرف رمح ، ومشى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم مرحلة يرفع له هذا اللواء (٣) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٤ ص ١٧٨ والبداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٦ . ويروى أن بريدة أسلم فيمن انخرع من بطون خزاعة هو وأخواه مالك وملكان ، وأسلم حين مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم للهجرة ، الطبقات ج ٤ ص ٢٧٨ .

(٢) النهاية لابن الاثير ، ج ١ ص ١١٥ .

(٣) التحفة اللطيفة ، ج ١ ص ٣٥٦ .

وتلبث بريدة بعد ذلك فى « كراع الغميم » حينا من الزمن لبعض شأنه ، ثم انتقل فلحق بالرسول ، فظل يشهد معه المشاهد والغزوات ، حتى يقول ابن حجر فى « الاصابة » انه جاء فى الصحيحين انه شهد مع الرسول ست عشرة غزوة (١) ، وظل مع الرسول حتى لحق الرسول بالرفيق الاعلى .

وكان مما شهده بريدة غزوة خيبر، وكان عليه ثوب أحمر يلحظ الناس لونه ، وعلى الرغم من أن بريدة قاتل يومئذ قتالا عنيفا مجيدا ، يريد به وجه الله وحده ، كان يخاف الرياء والعجب بسبب هذا الثوب الاحمر الذى قد يتساءل الناس عن صاحبه فيعرفونه.

يقول بريدة : « لقد شهدت خيبر ، فكنت فيمن صعد الثلمة ، فقاتلت حتى رؤى مكانى ، وعلى ثوب أحمر، فما أعلم انى ركبت فى الاسلام ذنبا أعظم على منه ، للشهرة » (٢) . وهكذا تكون الجندية المجهولة ، ويكون الخوف من المباهاة والرياء .

وفى الفتح الاعظم : يوم فتح مكة ، عقد الرسول لواءين ، فجعل أحدهما فى يد بريدة بن الحصيب فحمله وحمل اللواء الآخر ناجية بن الاعجم (٣) .

ومضت الايام ، وبريدة يخرج من معركة ليدخل معركة ، وينتهى من غزوة ليبتدىء غزوة ، وهو لايرى متعته ولذته الا فى الفروسية والجهاد فى سبيل الله ، ولذلك حدث محمد بن أبى يعقوب العتبى قال : حدثنى من سمع بريدة الاسلمى وراء نهر بلخ وهو يقول :

---

(١) الاصابة ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) التحفة اللطيفة ، ج ٤ ص ١٧٨ .

(٣) الطبقات ، ج ٤ ص ١٧٨ .

« لاعيش الاطراد الخيل » (١) .

والى جوار بطولة بريدة فى الجهاد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعين به فى أكثر من مجال ، فقد عهد اليه مثلا بالاشراف على أسارى غزوة المريسيع ليرعاهم ويتولى شئونهم ، والمريسيع اسم ماء فى ناحية قديد على الساحل ، سار اليه النبى عليه الصلاة والسلام فى سنة خمس أو ست لمجاهدة بنى المصطلق . وكذلك استعمله النبى امينا وعاملا على الصدقات فى قبيلتى أسلم وغفار . وكذلك أرسله الى قبيلة أسلم يستنفرهم الى الجهاد فى غزوة تبوك ، وكذلك بعثه النبى مع الامام على الى اليمن (١) .

وهكذا أثبت صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام انهم صالحون للعمل فى أكثر من ميدان .

***

ومات الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكأن بريدة لم يطق البقاء فى المدينة بعد ذلك ، فخرج مهاجرا مجاهدا فى سبيل الله هنا وهناك ، أو لعله فعل ذلك لما يرويه بعض الرواة ، من ان النبى قال لبريدة: يا بريدة ، انه سيبعث من بعدى بعوث ، فاذا بعثت فكن فى بعث أهل المشرق ، ثم كن فى بعث خراسان ، ثم كن فى بعث أرض يقال لها : مرو ، فاذا أتيتها فانزل مدينتها فانه بناها ذو القرنين ، وصلى فيها عزير ، أنهارها غزيرة ، تجرى بالبركة ، على كل نقب منها ملك شاهر سيفه ، يدفع عن أهلها السوء الى يوم القيامة .

---

(١) الطبقات ، ج ٧ ص ٤ .
(٢) الطبقات ج ٤ ص ١٧٨ . والتحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٥٦ .

فقدمها بريدة غازيا ، واقام بها الى أن مات ، وقبره يقول عنه ياقوت الحموى المتوفى سنة ست وعشرين وستمائة للهجرة : انه معروف بمرو الى الآن ، وانه راى عليه راية منصوبة (١) .

ولقد روى بريدة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد عن مائة وستين حديثا ، وروى عنه ابناه عبد الله وسليمان والشعبى وجماعة (٢) .

وكان بريدة يتجنب الخلاف ويحذر الطعن فى غيره ، فعن رجل من بكر بن وائل قال :

كنت مع بريدة الاسلمى بسجستان ، فجعلت اعرض بعلى وعثمان وطلحة والزبير ، لاستخرج رايه ، فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : اللهم اغفر لعثمان ، واغفر لعلى ابن أبى طالب ، واغفر لطلحة بن عبيد الله ، واغفر للزبير بن العوام .

ثم أقبل على فقال لى : لا أبالك ، اتراك قاتلى ؟

فقلت : والله ما أردت قتلك ، ولكن هذا أردت منك

قال : قوم سبقت لهم من الله سوابق ، فان يشأ يغفر لهم بما سبق لهم فعل ، وان يشأ يعذبهم بما أحدثوا فعل ، حسابهم على الله (٣) .

***

ولقد ظل بريدة بن الحصيب ما يزيد عن نصف قرن ، أى ما يزيد عن خمسين عاما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى جهاد موصول وكفاح مستمر ، حتى لقى ربه تبارك وتعالى بعيدا عن موطنه

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ١١٣ وانظر عيون الاخبار ج ٦ ص ٢١٥ .
(٢) تهذيب الاسماء ج ١ ص ١٣٣ والتحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٥٦ .
(٣) الطبقات ج ٤ ص ١٧٩ .

ومنبته ، ولـكنه مات يوم مات فى أرض من صميم بلاد الاسلام يوم ذاك .

يقول ابن سعد فى « الطبقات » :

وحين فتحت البصرة ومصرت تحول بريدة اليها ، واختط بها ، وبنى بها دارا ، ثم خرج منها غازيا الى خراسان ، فى خلافة عثمان بن عفان ، فلم يزل بها حتى مات بمرو فى زمن يزيد بن معاوية ، وبقى ولده بها ، وقدم من ولده قوم فنزلوا ببغداد فماتوا بها (١) .

وقد توفى على الاصح ـ كما يروى الذهبى فى العبر ـ سنة ثنتين وستين ، ودفن فى مرو ، وقال ابن كثير : « ذكر موته غير واحد فى هذه السنة » (٢) .

وهو آخر من توفى من الصـــــحابة رضى الله عنهم بخراسان (٣) .

وفى مرو قبور اربعة من الصحابة منهم : بريدة بن الحصيب ، والحكم بن عمرو الغفارى ، وسليمان بن بريدة ، فى قرية من قراها يقال لهـــــا « فنى » أو « فنين » (٤) .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

---

(١) الطبقات ج ٧ ص ٤ و ج ٤ ص ١٧٩ . وانظر البداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٧ .

(٢) العبر ، ج ١ ص ٦٦ . والبداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٧ .

(٣) تهذيب الاسماء ج ١ ص ١٣٣ .

(٤) معجم البلدان ، ج ٥ ص ١١٥ .

المجاهد الطهور

عويم بن ساعدة الأنصاري

اذا كنا نصف الاسلام العظيم بأنه دين الطهارة والطاهرين ، واذا كان القرآن المجيد يحدثنا بقوله : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، فليست الطهارة فى مفهوم الاسلام مقصورة على طهارة البدن ، بل ان مفهومها يمتد حتى يشمل طهارة الحس بالنظافة ، وطهارة النفس بالصفاء ، وطهارة الفهم باستقامة العلم ، وطهارة العزم بعلو الهمة وسمو القصد

ولغة العرب ــ وهى لغة القرآن ــ تقول ان الطهر الحسي هو زوال الدنس والقذر، ويجىء من ذلك المعنى الاسلامى الخاص ، فيكون نقيض النجاسة ، ويتم بالغسل والوضوء ونحوهما . ويجىء المعنوى ، فتكون الطهارة ضربين : طهارة جسم بالمعنى اللغوى أو الشرعى ، وطهارة نفس بسلامة الخلق ، والتنزه عما لا يحل ، وعلى المعنيين تحمل عامة الآيات القرآنية (١) .

وما أجمل المسلم حين يستجيب لربه كما استجاب رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال له تبارك وتعالى : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ،

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ج ٢ ص ١٤٧ .

ولربك فاصبر » . فيحرص المسلم على أن يكون نظيف البدن ، نقى الروح ، سليم الفهم ، وطيد العزم ، وأن يستمسك بشرعة الوفاء والفداء ، حتى يلقى الله تبارك وتعالى وهو على هدى من ربه وضياء .

ولقد خرجت مدرسة الصادق الامين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه رجالا أبطالا ، أتقياء أصفياء ، علماء حكماء ، مضحين أوفياء ، زانوا جبين الدنيـا ، وخلدوا على الايام أمثلة صالحة للناس .

من هؤلاء الصحابى الجليـل ، والمؤمن الطهور ، والمجاهد الصبور ، المجهول عنـد كثير من المسلمين : ابو عبد الرحمن عويم بن ساعدة بن عائش بن قيس بن النعمان بن زيد الانصارى الاوسى (١) . وهو الذى تقول عنه سيرته : « كان له فضل قديم فى الاسلام » (٢) .

وأعظم من هذا أن نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « نعم العبد من عباد الله ، والرجل من أهل الجنة : عويم بن ساعدة » (٣) .

ولقد أسلم عويم قديما ، وكان فى طليعة الانصـار الذين استجابوا لله وللرسول ، فشهد البيعات الثلاث مع رسول الله عليه الصلاة والسلام : شهد بيعة العقبة الاولى مع سبعة أو ثمانية (٤) من أهل المدينة ، أراد الله بهم خيـرا حين قدموا مكة فى الموسم ، فحدثهم الرسول عن الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، ودعاهم الى

(١) وأمه هى عميرة بنت سالم بن سلمة .
(٢) شرح نهج البلاغة ، لابن ابى الحديد ، ج ٢ ص ٢٧٧ طبعـة بيروت .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ص ٣٢ .
(٤) المرجع السابق .

الله فأجابوه وصدقوه ، وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الدين ، وبايعوه بيعة الايمان ، ووعدوه أن يبلغوا قومهم من ورائهم ، وقالوا : « عسى الله أن يجمعهم بك » .

وشهد عويم أيضا بيعة العقبة الثانية مع اثنىعشر رجلا ، ويروى ان الرسول عليه الصلاة والسلام تلا عليهم قول الله عز وجل من سورة ابراهيم : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام ، رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم » الى آخر السورة (١) .

وشهد عويم كذلك بيعة العقبة الثالثة مع سبعين أو ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، ويحدثنا عبادة بن الصامت عن صيغة هذه البيعة فيقول : « انا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله لاتأخذنا لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قدم علينا يثرب ، ونمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ، ولنا الجنة ، فهذه بيعة رسول الله صلى لله عليه وسلم التى بايعناه عليها » (٢)

وحين تمت الهجرة من مكة الى المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عويم بن ساعدة وعمر بن الخطاب (٣) ، ويالها من مؤاخاة ذات سمو وعلو، فعمر

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ١٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٠٣ .
(٣) الطبقات لابن سعد ، ج ٣ ص ٣١ . وقيل ان الرسول اخى بين عويم وحاطب بن أبى بلتعة .

هو الفاروق ، وهو الذى كان يفر منه الشيطان ، وهو الذى يقول فيه المصطفى : « لقد كان فيمن قبلكم ملهمون ، فان يكن فى أمتى منهم أحد فعمر » .

واذا كان عويم قد سبق فشهد البيعات الثلاث كما رأينا ، فانه بعد ذلك قد أسهم بنصيب كبير مجيد فى الكفاح والنضال تحت لواء الاسلام ، فشهد غزوات بدر وأحد والخندق وسائر المشاهد كلها مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم ندبه الرسول لمهمة دقيقة ، اذ كلفه بأن يقتل المنافق الاثيم اللعين : الحارث بن سويد بن الصامت الذى غدر بالمسلمين غدرا خسيسا لئيما ، فقتل منهم ـ بطريق الخيانة والغدر ـ عددا فى غزوة أحد ، فاستجاب عويم مسارعا ، ونفذ ما أمر به الرسول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

والى جوار هذا الكفاح الموصول كان عويم حريصا على وحدة الامة المؤمنة ، عاملا بكل ما استطاع على تجنيبها مواقف الخلاف ومواطن الفتنة ، ولذلك نراه حينما حاولت عقارب الافساد أن تدب بين المسلمين ، بسبب اختيار الخليفة الاول بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، حيث وسوس الشيطان لبعض الناس ان يكون هناك خليفتان : أمير من المهاجرين ، وأمير من الانصار ، نرى عويما يسارع مع زميله معن بن عدى الى سحق هذه الفتنة ، حيث ذهبا الى أبى بكر وقالا له : « باب فتنة نرجو أن يغلقه الله بك » .

وكان هذا الكلام مفتاحا طيبا لاجتماع «السقيفة» حيث بايع المسلمون أبا بكر الصديق رضى الله عنه ،

وأبقوا الفتنة نائمة فى مراقدها : « وان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاتقون » .

والى جوار هـذا الجهاد والنضال ، مع هذه الحكمة البينة والنية الطيبة ، كان عويم رجلا نظيفا طهورا ، حتى يروى انه أول من استنجى بالمـاء ، ويروى أن قول الله تعالى فى سورة التوبة عن مسـجد التقوى : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » نزل فى شأن عويم بن ساعدة واخوان له من أمثاله (١).

ويروى ان الرسول عليه الصلاة والسلام علق على هـذه الآية الـكريمة بقوله : نعم المرء : منهم عويم بن ساعدة » . وفى رواية انه قال : « نعم الرجال : منهم عويم بن ساعدة » . ويقول راوى الحديث : « لم يبلغنا انه سمى منهم رجلا غير عويم » (٢) .

كما يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم استدعى عويم بن ساعدة بعد نزول الآية وسأله متأكدا : ما هذا الطهور الذى أثنى الله به عليكم ؟ فأجابه عويم قائلا : يارسول الله ، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط الا غسل فرجه . فقال الرسول مؤيدا : هو هذا . وفى رواية : « الا غسل مقعدته » . والمقعدة هى الدبر. وفى رواية انه قال للنبى : « اننا نستنجى بالماء » . وفى رواية أخرى : « اننا نغسل أثر الغائط والبول» (٣).

وفوق هـذا وذاك كان عويم بن ساعدة رجلا رشيـدا فى قوله ، حكيما فى كلامه ، وله عبارات بليغة

(١) انظر البداية والنهاية ، ج ٧ ص ١٠٥ . وتفسير الطبرى وابن كثير عند الآية المذكورة . وفى الطبقات ج ٣ ص ٣١ : « وكان عـويم أول من غسل مقعدته بالماء فيما بلغنا » .

(٢) تاريخ الطبرى ، ج ١١ ص ٣١ .

(٣) انظر تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير فى الآية .

مأثورة ، يستهدى فيها كتاب الله عز وجل ، فهو مثلا يقول : « احذروا النقم » . وهو فى هذا يستضىء بقول الخالق جل جلاله : « واتقوا فتنــة لا تصيــبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب » .

ويقول عويم ايضا : « احمدوا الله على حسن البلاء وطول العافية » . وهو يستضىء فى هــذا بقول الحق تبارك وتعالى : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » .

ولقد طال عمر عويم بن ساعدة وحسن عمله ، حتى بلغ الخامسة والستين ، أو السادسة والستين ، وظل على عهده مع ربه عز شأنه ، يعبد ويجاهد ، ويتطهر ويتحرر ، ويسمو ويعلو ، ويفى ويفدى ، حتى أتاه أجله فى عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب (١) ، سنة عشرين للهجرة (٢) .

ولمـا علم عمر بوفاة عويم ، سارع اليه ، وشارك فى تشييعه ، ثم وقف على قبره ، وهو بين دار الدنيا ودار الآخرة ، وقال لمن حوله : « لايستطيع أحــد من أهل الارض ان يقول انه خير من صاحب هــذا القبر ، ما نصبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم راية الا وعويم تحت ظلها » !

رضوان الله تبارك وتعالى على عمر بن الخطاب العظيم الجليل ، ورضــوان الله تبــارك وتعالى على عويم بن ساعدة المجاهد الطهور النبيل .

---

(١) وقيل توفى فى حياة الرسول ، ولكن الصحيح ماذكرنا ، لأن لعويم اثرا فى بيعة أبى بكر .

(٢) كان لعويم ولد اسمه عتبة ، واخـر اسمة سويد . وأمهما امامة بنت بكير .

الشهيد الصالح المتواضع

ثابت بن أقرم البلوي

ان عقيـــــدة الايمان بالله جل جلاله تعلم صاحبها الجندية المجهولة الموصولة ، والعمل الدائب الصامت ، لان المؤمن المخلص يعلم علم اليقين ان ما عند الله خير مما عند الناس : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق». وان الآخرة أولى وأبقى وأعلى من الاولى : « وان الدار الآخرة لهي الحيوان (١) لو كانوا يعلمون » .

وصلوات الله وسلامه على من قال له ربه : « وللآخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

ولذلك كان المؤمن فى صدر الاسلام ينطلق فى مجالات العبادة والعمل والنضال ، بلا ضجيج ولا عجيج ، وبلا مباهاة أو مفاخرة أو حديث عن النفس ، لانه يعمـل لوجه الله ، ولان ربه تبارك وتعالى لا يكاد يذكر الجهاد الا ويذكره بأنه فى سبيل الله .

فى سورة البقرة : « ولا تقولوا لمن يقتـل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولـكن لا تشعرون » .

وفيها : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لايحب المعتدين » .

وفيها : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا

(١) أى الحياة الكاملة التامة .

فى سـبيل الله أولئك يرجون رحمـة الله والله غفور رحيم » .

وفى سـورة المـائدة : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين أعزة على الـكافرين يجاهـدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

وفى سـورة الانفـال : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سـبيل الله والذين آووا ونصروا أولئـك بعضهم أولياء بعض » .

وفى سورة التوبة : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم أعظم درجة عند الله » .

وفيها : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالـكم وانفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لـكم ان كنتم تعلمون » .

والله خير من يحصى ويجزى ، فلا موجب للحديث عن النفس أو تزكية الذات ، والقرآن الـكريم يقول : « فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

ومن هنا ضم سجل السيرة النبوية العطرة أخبـار رجال أتقيـاء أوفيـاء ، عاشـوا للحق ، وناضـلوا من أجله ، وماتوا ثابتين عليه ، فى بذل وتضحية وفداء ، وفى تواضع وصمت واصرار .

ولا أقل ـ فيما يجب علينـا ـ من أن نتعرف الى هؤلاء الاوفياء ، لعل نفحة من نفحات الاعتبار والادكار تطوف بساحتنا ، فتبعث الرقود ، وتحرك الجمود ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وهذا واحد منهم لا يكاد يعرفه الاكثرون :

انه المجاهد الصابر الصامت ، والشـهيد الصالح المتواضع : ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عدى بن العجلان

البلوى (١) ، وهو من طليعة المجاهدين السابقين ، فقد جاء فى سيرته أنه « شهد غزوات بدر وأحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وهـذا تعبير كريم ، ووسـام عظيم ، تحلى السيرة به صـدور طائفة من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فما نـكاد نطالع سـيرة أحد منهم ، حتى نجد فى مطلع السيرة هـذا التعبير عنه : « شـهد بدرا واحدا والخندق وسائر المشـاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

والى جوار الغزوات التى شهدها ثابت بن أقرم ، أرسـله النبى صلوات الله وسـلامه عليه فى طائفة من الواجبـات النضـالية الجهادية ، فقد أرسله مثلا أميرا على سرية فدائية الى جهـة فى نجد تسمى « الغمرة » وجاهـد فيهـا جهـادا بطوليـا ، وأصيب بجراح قاسـية بليغة ، حتى قيل انه مات فى هذه السرية ، مع ان الواقع ان الله عزت قدرته كتب له البقاء بعدها، ليواصل كفاحه فى سبيل الايمان وكرامة الانسان (٢) .

وفى السنة الثامنة للهجرة جاءت « غزوة مؤتة » (٣)

(١) البلوى : نسبة الى بلى ، وهى احدى القبائل ، وأغلب المراجع تذكره باسم ثابت بن أقرم ، ولكن النووى ذكره فى كتابه : « تهذيب الاسماء واللغات » : ثابت بن أرقم ، ولعله تحريف .

(٢) عن عروة : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قبل الغمرة من نجد ، أميرهم ثابت بن أقرم ، أصيب فيها (الاصابة ج ١ ص ١٩٢) وقال الحافظ : يمكن تأويل قوله « أصيب » أى أصيب بجراح ، فلم يمت (أسد الغابة ج ١ ص ٢٦٣) . وفى تهذيب الاسماء (ج ١ ص ١٣٩) أن الصواب أن ثابتا لم يمت فى هذه السرية ، وبه قال الشافعى فى المختصر والجمهور . والغمرة منهل من مناهل طريق مكة، ومنزل من منازلها ، وهو فصل ما بين تهامة ونجد (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢١٢) .

(٣) انظر تفاصيل من حديثها فى كتابى : « الفداء فى الاسلام » ص ١٢٦ وما بعدها . الطبعة الثانية .

التى كانت امتحانا عسيرا لكتائب الاسلام ، والتى سقط فيها ثلاثة من كبار القادة المجاهدين شهداء فى الميدان هم : جعفر بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة .

وقد شارك ثابت بن أقرم فى هذه الغزوة ، وجاهد فيها بكل ما استطاع ، دون ضجة منه أو جلبة ، وكم من مخلص يعمل فى صمت ودأب ، لا يحس به الناس، ولا يبالون أمره ، وهو عند الله عظيم جليل ، لو أقسم على الله لأبره .

وهكذا كان شأن ثابت بن أقرم يوم مؤتة ، وحينما سقطت الراية من يد القائد الشهيد الثالث ، سارع ثابت فتناولها ورفعها ، حتى يبقى لواء الاسلام عاليا. ولكنه يحب أن يجاهد فى صمت ، ولايريد لنفسه أن تدخل مدخلا من مداخل الشهرة والاعلان عن الذات ، ولذلك قال لرفاق النضال من حوله : يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم للقيادة .

فقالوا له : أنت !

فأجاب متواضعا منكرا نفسه : ما أنا بفاعل ..

وتطلع ثابت فرأى خالد بن الوليد قريبا منه ، فدفع اليه بالراية فى عزم وتصميم قائلا له : أنت أعلم بالقتال منى!

وتسلم خالد اللواء لانقاذ الموقف ، ووافق المجاهدون على قيادته .

ونفهم من ذلك الحادث ان ثابتا كان قريبا من مكان القادة أو الصالحين للقيادة ، فلم يكن نكرة من النكرات ، ولا امعة من الامعات ، ونفهم ان رأى الناس فيه كان رأيا جميلا حسنا ، بدليل انهم عرضوا عليه أن يواصل حمل اللواء ، وان ثابتا كان رجلا متواضعا

مخلصا ، فلم يغره هذا العرض ، وهو يعلم ان هناك من هو أقدر منه وأعلم بالقتال ، وهو خالد بن الوليد سيف الله الذى سله الله على المشركين .

وعاد ثابت بن أقرم من مؤتة ، لا لينام أو يهدأ ، بل ليواصل من جديد نضاله لرفع كلمة الاسلام ، فى صبر وصمت وفداء . وكان يقرر ان النصر فى الميدان ليس بالكثرة فى العدد أو العدة ، وانما هو — أولا وقبل كل شىء — بقوة الإيمان وسلطان اليقين . ولذلك روى أبو هريرة قال : شهدت مؤتة ، فقال لى ثابت بن أقرم : انك لم تشهدنا ببدر ، انا لم ننصر بالكثرة .

وصدق ثابت ، فالحق جل جلاله يقول فى ذلك :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين » .

ويقول : « قل لايستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الالباب ، لعلكم تفلحون » .

ثم جاءت بعد ذلك معركة اليمامة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فسارع اليها ثابت بن أقرم ، وكان ثانى أثنين تقدما الجيش المؤمن ، ليمهدا أمامه طريق الفتح والنصر باذن الله تعالى ، فخرج ثابت مع عكاشة بن محصن الاسدى (١) ، وقاتلا قتال الرجال، وناضلا نضال الابطال ، وثبتا ثبات الجبال ، حتى لقيا الشهادة فى سبيل الله عز وجل ، ودفنا فى مكانهما ، بلا ضجة أو احتفال .

وكما عاش ثابت بن أقرم البلوى مجاهدا صامتا ، لايزكى نفسه ، ولايتحدث عن ذاته ، لحق بربه سبحانه

(١) انظر تفاصيل بطولته فى كتابى « أبطال عقيدة وجهاد » ص ١٢٩ — ١٤٢ . نشر مجمع البحوث الاسلامية .

مجاهدا صامتا ، وهنـــاك يلقى عظيم الجزاء عند الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وكان أستشهاد ثابت يوم اليمامة سنة احدى عشرة للهجرة ، فى قتال أهل الردة ، قتله طليحة ، وقتل معه عكاشة بن محصن ، وقد اشترك طليحة مع أخيـــه فى قتلهما ، ثم أسلم طليحة بعد ذلك (١) .

وفى « الطبقات الـكبرى » لابن سعد : « وأقبل خالد ابن الوليد معه المسلمون ، فلم يرعهم الا ثابت بن أقرم قتيلا تطؤه المطى ، فعظم ذلك على المسلمين ، ثم لم يسيروا الا يسيرا حتى وطئوا عكاشة قتيلا » (٢) .

وفى أســـد الغابة : ان ثابتا قتل سنة احدى عشرة ، فى قتال الردة ، وقيل سنة اثنتى عشرة ، قتله طليحة الاســـدى ، وقتل معه عكاشة بن محصن ، اشترك طلحة وأخوه فى قتلهما ، ثم أسلم طليحة (٤) .

وفى الاصـــابة : قال عمر لطليحة بعد أن أسلم :كيف أحبك وقد قتلت الصالحين : عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم ؟

فقال طليحة : أكرمهما الله بيدى، ولم يهنى بأيديهما!

ويالها من اجابة .

ولقد اتفق أهل المغازى على ان ثابت بن أرقم قتـــل شـــهيدا فى عهـــد أبى بكر رضى الله عنه ، قتله طليحة ابن خويلد الاسدى (٤) .

رضوان الله تبارك وتعالى على الشـــهيد الصامت ، الصالح المتواضع ثابت بن أقرم البلوى ؟

وسلام عليه فى الخالدين .

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) الطبقات ، ج ٣ ص ٣٦ . القسم الثانى .

(٣) أسد الغابة : ج ١ ص ٢٦٣ . (٤) الاصابة ، ج ١ ص ١٩٢ .

الشهيد ابن الشهيد أخو الشهيد
عون بن جعفر بن أبي طالب

سيظل امام الانسانية محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثلا أعلى فى كل جانب من جوانب البطولة والعظمة، وما من موقف تقفه البشرية ، وتتطلب فيه الرائد والقائد ، الا وجدت فى رسول الله بغيتها وطلبتها : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . والله جل جلاله هو الذى يقول فى شأن رسوله : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ، ويقول له أيضا : « وانك لعلى خلق عظيم » .

ونحن بحاجة الى الاستكثار من حوافز النضال والكفاح ، وأمثلة الوفاء والفداء ، ونماذج التضحية والجهاد . ولقد كان رسول الله اماما أى امام فى هذا الباب ، فهو المبرز السباق الى مواطن الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد ، وهو القائل : « لولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل » .

وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كرم المجاهدين، ورفع شأنهم ، وصان حرمتهم ، حتى قال فيما يرويه ابن حجر عن أبى موسى : « اتقوا أذى المجاهدين ، فان الله يغضب لهم ، كما يغضب للرسل ، ويستجيب دعاءهم كما يستجيب دعاء الرسل » (١) .

ولم يقتصر جهاد الرسول على ذاته ، بل كان من حوله هؤلاء الطاهرون المخلصون من آل بيته الكريم ،

---

(١) أسد الغابة لابن حجر ، ج ١ ص ٣٤٨ طبعة التعاون .

الذين حملوا معه لواء الكفاح والجهاد ، حتى ألبتوا للناس أن الانتساب الى شجرة النبوة يستلزم تبعات وواجبات ، فحمزة عم النبى قد مات شهيداً فى غزوة أحد ، وعمه جعفر بن أبى طالب مات شهيدا فى غزوة مؤتة ، وابن عمه على مات شهيدا ، وابن عمه محمد ابن جعفر بن أبى طالب مات شهيدا ، وابن بنته الحسين ابن على مات شهيداً ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وهناك مئات من آل بيت النبى صلوات الله وسلامه عليه زانوا صفحات التاريخ بالجهاد حتى الاستشهاد ، والف المؤرخون حول هـذه البطولات كتبا تحدثنا عن هؤلاء الشهداء ، فقد ألف أبو مخنف كتابه : « مقتل على » وكتابه : « مقتل الحسين » ، وألف الهيثم بن عدى كتابه « أخبار الحسن ووفاته » ، وألف الواقدى « مقتل الحسن » و « مقتل الحسين » ، وألف بن النطاح : « مقتل زيد بن على » ، وألف الغلابى «مقتل على » و « مقتل الحسين » ، وألف الاشنانى «مقتل الحسن » و « مقتـل زيد بن على » ، وألف عمر بن شبة « مقتل محمد وأبراهيم ابنىعبدالله بن الحسن» ، وألف المدائنى كتابه : « أسماء من قتل من الطالبيين» ، وألف أبو الفرج الاصفهانى كتابه « مقاتل الطالبيين » ، وهكذا (١) ...

وهذا واحد من أولئك الرجال الابطال :

انه الصحابى الجليل ، المجاهد الشهيد : عون بن جعفر بن أبى طالب ، ووالد عون هو أبو المساكين ، الشهيد الطيار ، ذو الجناحين فى الجنة : جعفر بن أبى

(١) أنظر كتاب « مقاتل الطالبيين » لابى الفرج ، بتحقيق الاستاذ السيد أحمد صقر ، صفحة ك و ل .

طالب الهاشمى (١) ، الذى نال نعمة الشـــهادة فى غزوة مؤتة ، والذى قال فيه الرســول عليه الصــلاة والسلام : « كان جعفر خير الناس للمساكين » .

ووالدة عون هى أسـماء بنت عميس الخثعميـة ، الصحابية الجليلة ، السابقة الى الاسلام ، التى هاجرت الهجرتين ، وصلت الى القبلتين (٢) .

وقد ولد عون بأرض الحبشـة ، بعد أن هاجر اليها والداه جعفر وأسماء . ويذكر ابن عبد البر طائفة ممن هاجروا الى الحبشة ، ثم يقول : « ثم خرج بعـدهم جعفر بن أبى طالب ، ومعه امرأته أسماء بنت عميس ، فولدت له هناك بنيه : محمدا وعبد الله وعونا » (٣).

ولم يرجع جعفر مع أهله من الحبشـة الى المدينة الا بعد أن فتح المسلمون أرض خيبر ، ولمـا رآه الرسول فرح به وقال : « ما ادرى بأيهما أنا أسر : بقـدوم جعفر أم بفتح خيبر » .

ونشأ عون بن جعفر فى ظلال الاســـلام والقرآن والايمان ، ترعاه عين الله أولا ، ثم تلاحظه عيون والديه بالتأديب والتوجيه ، ثم تشمله نفحات النبوة عن قرب، وبعد حين خرج والده جعفر ليكون أحـد قواد ثلاثة عينهم الرسول صلوات الله وسـلامه عليه ، ليقودوا كتائب المجاهدين فى غزوة مؤتة تباعا ، وشاءت الاقدار أن ينال جعفر نعمة الشهادة فى هـــذه المعركة ، بعد مواقف بطولية، اظهر فيها جعفر اقدام المؤمنين وثبات الموقنين

---

(١) أنظر ترجمته فى مقـــاتل الطالبين ص ٦ ــ ١٨ ٠ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٥ ٠ وتهذيب التهذيب ج ٢ ص ٩٨ ٠ والاصابة ج ١ ص ٢٤٨ ٠ وغير ذلك ٠ (٢) انظر حديثهـــا مفصـــلا فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاســــلام » نشر دار الرائد العربى ببيروت ٠ ص ٢٢٣ ــ ٢٢٧ ٠ (٣) الدرر ، ص ٥١ ٠

وحينما بلغ النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ادعوا الى بني أخى (يعنى أولاد جعفر، وفيهم عون) ، فجيء بهم اليه وهم كالافراخ ، فقال النبى : ادعوا الى الحلاق .

فأحضروه ، فأمره النبى فحلق رءوسهم ، ثم تطلع اليهم الرسول فى رحمة وحنان ، وقال : « اما محمد فشبيه عمنا أبي‌طالب، وأما عون فشبيه خلقى وخلقى». وأضاف قوله : « اللهم اخلف جعفرا فى أهله ، وبارك لعبد الله (ابن جعفر) فى صفقة يمينه » .

وحينما ظهر على أسماء بنت عميس ما يدل على خشيتها أن يتعرض أولادها لفقر أو حاجة ، انكر عليها الرسول ذلك ، وأكد لها أنهم سيكونون موضع عنايته ورعايته ، وقال لها : « أتخافين عليهم العيلة (أى الفقر) وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة ؟ ! » (١) .

وشب عون بن جعفر ، وبلغ مبلغ الرجال ، وأخذ يشارك فى الغزوات والقتال ، ونفعه الله تبارك وتعالى نفعا كبيرا برعاية الرسول له ، حيث نفخ فيه روح البطولة والاقدام ، وعلمه ان ما عند الله خير وأبقى ، وان المؤمن يجب أن يكون مستعدا على الدوام لبذل روحه فى سبيل ربه الذى خلقه ورزقه ، لان حياة الانسان فى الدنيا قليلة زائلة ، وأما حياة الشهداء عند ربهم فهى الحياة حق الحياة : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ، ولكن لاتشعرون، ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٢١ .

صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » .
ولحق الرسـول صلى الله عليه وسلم بربه ، حيث انتقل الى الرفيق الاعلى ، وظل عون بن جعفر وفيـا للعهـد ، صادقا فى الوعد ، يجاهد فى سبيل الله بما يستطيع ، وظل كذلك فى عهـد أبى بكر الصديق رضوان الله عليه ، ثم جاء عهـد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وعون ما زال المؤمن الصادق الايمان ، وكأنه كان يتذكر على الدوام ما روى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه انه قال لصحابته : «أتصبرون على البلاء؟» .
فقالوا : نعم ..
فعاد يسألهم : أتشكرون عند الرخاء ؟ ..
وأجابوا : نعم ..
فرجع يسألهم : أتثبتون عند اللقاء ؟ ..
وكان جوابهم : نعم ..
فقال لهم الصادق المصدوق : «مؤمنون ورب الكعبة» !.
وما داموا مؤمنين بهذه الصورة فهم اذن من أهـل الفوز والنصر المبين: « وكان حقا علينا نصر المؤمنين» .
وجاءت فى عهـد عمر معركة شـديدة بين المسلمين وأعـدائهم المجرمين ، وهى معركة « تستر » وتستر اسم مدينة كبيرة ببلاد فارس فى «خوزستان». وخرج عون الى هـذه المعركة مجاهدا كعادته ، وخرج معه شقيقه محمد بن جعفر ، وشـاءت عناية الله أن ينال الشقيقان معا نعمة الشهادة فى سبيل الله ، ومضيا الى عالم الخالد ليقيما هناك نعم المقام : « ان المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .
واذا كان عون الشهيد ابن الشهيد أخو الشهيـد ، لم يترك ذرية ولا عقبا من ورائه ، فحسبه شرفا ومجدا ان يكون سلالة أولئك الشـهداء الاوفياء ، من أهل

الفداء والوفاء ، وحسبه قبل هذا وبعده أن ينال نوعا من الشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجال الاستشهاد ، فاذا كان الشهداء قد كثروا فى آل بيت الرسول ، فنحن نرى أكثر أقارب عون بن جعفر قدكانوا كذلك من الشهداء ، فجده حمزة بن عبد المطلب مات شهيدا ، ووالده جعفر بن أبى طالب مات شهيدا ، وعمه على بن أبى طالب مات شهيدا ، وابن عمه الحسين بن على مات شهيدا ، وأخوه محمد بن جعفر مات شهيدا ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ولا يعرف التاريخ الاسلامى ـ كما جاء فى مقاتل الطالبيين ـ أسرة كأسرة أبى طالب تعرضت للبلاء حتى كثر منها الشهداء ، وقد بلغت الغاية من شرف الارومة وطيب النجار ، وضل عنها حقها وجاهدت فى سبيله حق الجهاد على مر الاعصار ، ثم لم تظفر من جهادها المرير الا بالحسرات ، ولم تعقب من جهادها الا العبرات ، على ما فقدت من أبطال أسالوا أنفسهم فى ساحة الوغى راضية قلوبهم ، مطمئنة ضمائرهم ، وصافحوا الموت فى بسالة فائقة ، وتلقوه فى صبر جميل يثير فى النفس أفانين الاعجاب والاكبار ، ويشيع فيها ألوان التقدير والاعظام (١) .

ويقول العقاد فى « عبقرية الامام » : « فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والاحساس المتطلع الى الرحمة والاكبار ، لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحداً بعد واحد ، شيوخا جللهم وقار الشيب ، ثم

(١) مقاتل الطالبيين ، المقدمة ، صفحة ى .

جللهم السيف الذى لايرحم ، أو فتيانا عوجلوا وهم فى نضرة العمر ، يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية جياع ظماء .

واوشك الالم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبى العلاء لايظن به التشيع، بل ظنت باسلامه الظنون :

وعلى الافق من دماء الشهيد
ين : على ، ونجله شاهدان
فهما فى أواخر الليل فجرا
ن ، وفى أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة ، قلما تبلغها فى سير الشهداء غاية ، وكثيرا ما تتعطش اليها سرائر الامم فى قصص الفداء التى عمرت بها تواريخ الاديان » (١) .

ويعود العقاد ليقول فى كتابه « أبو الشهداء » هذه العبارة : « فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدوة وذكرى ، وحسبه أنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين » (٢) .

رضوان الله على سلالة المجاهدين الشهداء ، أهل الفداء والوفاء .

---

(١) عبقرية الامام ، ص ٣ و ٤ .
(٢) أبو الشهداء ، ص ١٧٦ طبعة دار الهلال .

حامل مفتاح الكعبة

عثمان بن طلحة العبدري

حينما تحتشد الجموع حول الكعبة ، ترنو أبصارهم الى بيت الله الحرام ، اول بيت وضع للناس ، فتثور خواطرهم تسترجع الذكريات الخوالد التي تدور حول هذا البيت العتيق ، ومن بين هذه الذكريات ذكرى تتعلق ببطل من أبطال الاسلام ، ومجاهد من كتيبة الايمان ، هو حاجب بيت الله تعالى ، وحامل مفتاح الكعبة المشرفة : الصحابى الجليل عثمان بن طلحة ابن أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى العبدرى القرشى ، الذى يروى انه مات شهيدا سنة ثنتين واربعين فى معركة « اجنادين » رضوان الله تعالى عليه .

ولقد أراد الله جل جلاله ـ ليميز الخبيث من الطيب ، وليتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود ـ أن يظل عثمان بن طلحة حينا من الزمن فى ظلمات الجاهلية ، فظل على الشرك الى ما قبل فتح مكة بقليل .

ولكنه كان شريفا فى قومه : « وكان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة ، ويقال : والندوة أيضا فى بنى عبد الدار » (١) . وكان صاحب مروءة انسانية ، وشهامة ملحوظة فى جاهليته قبل اسلامه ، ومن هنا

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج ٣ ص ٢٦٠ • مطبعة الاستقامة .

قام برعاية السيدة أم سلمة رضـوان الله عليها حين هاجرت منفردة (١) .

فقد خرجت أم سلمة على بعير، وفى حجرها رضيعها سلمة ، وزوجها أبوسلمة يقود لها البعير، فهجم عليهم أهلها ، وانتزعوا الطفل وأمه ، وهاجر أبوسلمة وحده مضطرا ، تاركا وراءه زوجته وابنه الوليد ، وظلت أم سلمة كذلك قرابة سنة ، ثم تشفع لها بعض أقاربها ، فتركوها تهاجر وحيدة مع وليدها ، وفى أول الطريق لقيها عثمان بن طلحة فسألها : أو ما معك احـد ؟ فأجابت : ما معى أحد الا الله وابنى هذا . فقال : والله ما الك من مترك . وقاد لها بعيرها ، ورعى حرمتهـا خير رعاية ، وصان شرفها وكرامتها خير صيانة ، حتى أبلغهـا مكان زوجها ، فكانت تقول : « فوالله ماصحبت رجلا من العرب أرى انه أكرم من عثمان بن طلحة » .

ولندع ابن كثير يصور لنا الموقف بلغته ، فيقول :

« قال ابن اسحاق : فحدثنى أبى ، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبى سلمة ، عن جدته أم سلمة ، قالت : لما أجمع أبوسلمة (٢) الخروج الى المدينة رحل لى بعيره ، ثم حملنى عليه ، وجعل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج يقود بى بعيره .

فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا اليه فقالوا له : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هـذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ فنزعوا خطـام البعـير من يده ، وأخذونى منه .

---

(١) الدرر فى المغازى والسير لابن عبد البر ، ص ٨١ بالهامش .
(٢) أجمع : أى عقد العزم .

وغضب عند ذلك بنو عبد الاسد رهط أبى سلمة ، وقالوا : والله لانترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الاسد ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة الى المدينة ، ففرق بينى وبين ابنى وزوجى ، فكنت اخرج كل غداة فأجلس فى الابطح (١) ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريبا منها ، حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : الا تحرجون من هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها ؟ ..

فقالوا لى : الحقى بزوجك ان شئت ، فرد بنو عبد الاسد الى عند ذلك ابنى ، فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله ، حتى اذا كنت بالتنعيم (٢) لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار ، فقال : الى أين يا ابنة أبى أمية ؟.. قلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أو مامعك أحد ؟ قلت : ما معى أحد الا الله وابنى هذا ، فقال : والله مالك من مترك .

فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى انه كان أكرم منه ،

---

(١) الابطح : يضاف الى مكة والى منى ، لان المسافة بينه وبينهما واحدة ، وربما كان الى منى أقرب ، وهو المحصب ، وهو خيف بنى كنانة ، وقد قيل انه ذو طوى ، وليس به . « معجم البلدان » .

(٢) التنعيم : موضع بمكة فى الحل ، على فرسخين من مكة ، وقيل على اربعة (معجم البلدان) .

كان اذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى اذا نزلت استأخر ببعيرى فحط عنه ، ثم قيده فى الشجر، ثم تنحى الى شجرة فاضطجع تحتها ، فاذا دنا الرواح قام الى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى وقال : اركبى ، فاذا ركبت فاستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقادنى حتى ينزل بى .

فلم يزل يصنع ذلك حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر الى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك فى هذه القرية . وكان أبو سلمة بها نازلا ، فأدخلنيها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا الى مكة .

فكانت تقول : ما أعلم أهل بيت فى الاسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن أبى طلحة » (١) .

***

وتأذن الله بفضله على عثمان بعد حين ، فنفتح قلبه للاسلام ، حيث توجه مع سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، والبطل الفاتح عمرو بن العاص ، أثناء هدنة الحديبية ، الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا اسلامهم ، ويروى انهم التقوا فى طريقهم اليه عند مكان يسمى « الهدة » . ويقول ياقوت فى «معجم البلدان » ان الهدة موضع بين مكة والطائف ، وجاء فى « الدرر » لابن عبد البر : قيل أسلم قبل عمرة القضاء وقيل بعدها (٢) .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ٢١٥ . واقرأ قصة أم سلمة وأبى سلمة بتفاصيلها فى كتابى « الفداء فى الاسلام » ص ٩١ ـ ١٠٠ الطبعة الثانية .
(٢) الدرر ، ص ٢٢١ .

وجاء فى « البداية والنهاية » ان عثمان أسلم فى أول سنة ثمان قبل الفتح (١) .

وحدد الطبرى فى تاريخه اليوم والشهر الذى أسلم فيه عثمان ، فذكر انه أسلم فى أول صفر من السنة الثامنة للهجرة (٢) .

وحينما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام هؤلاء الابطال الثلاثة ، وهم عثمان ، وخالد ، وعمرو ، قال : « رمتكم مكة بأكبادها » يعنى انهم وجوه أهل مكة ، وقال ابن الاثير فى « النهـــاية » : أراد صميم قريش ولبابها وأشرافها .

ثم جاء فتح الله المبين ونصره العظيم الذى تمثل فى فتح مكة بلا معركة تذكر ، وخرج عثمان بن طلحة مع الركب النبوى الكريم ، وحين تم الفتح أمر الرســول صلوات الله وسلامه عليه عثمان وعمرو بن العاص بأن يفتحا الكعبة ، ويحطما ما فيها من الاصنام ، ويزيلا مافيهــا من الصــور ، وقد كان أهل الجاهلية من افكهم وضلالهم قد رسموا لابى الانبياء ابراهيم عليه السـلام صورة يستقسم فيها الازلام (أى القداح) ، مع انه داعيــة التوحيــد الاول ، وقد غضب الرسول من ذلك وقال : قاتلهم الله ، جعلوه شيخا يستقسم بالازلام .

ودخل النبى الكعبة ومعه عثمان بن طلحة ، وبلال ابن أبى رباح ، وأسامة بن زيد ، وصلى النبى داخل الكعبة ركعتين ، ثم خرج فوقف على بابها ، وخطب خطبة جليلة قال فيها :

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٢٣ .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٢٩ ــ ٣٠ .

« الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده ، ماذا تقولون ؟ وماذا تظنون ؟ قالوا : نقول خيرا ، ونظن خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت .

فقال : انى أقول كما قال أخى يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ألا ان كل ربا فى الجاهلية أو دم أو مأثرة فهو تحت قدمى هاتين ، الا سدانة الكعبة وسقاية الحاج ، الا وفى قتل شبه العمد : قتيل العصا والسوط ، الدية مغلظة ، مائة ناقة ، منها أربعون فى بطونها أولادها .

ان الله قد اذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله اتقاكم، الا ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض ، فهى حرام بحرمة الله ، لم تحل لاحد كان قبلى ، ولا تحل لاحد يأتى بعدى ، وما أحلت لى الا ساعة من النهار ، لاينفر صيدها ، ولايعضه عضاهها (اى لايقطع شجرها) ، ولا تحل لقطتها الا لمنشد ، ولا يختلى خلاها (اى لايقطع نباتها الرطب الرقيق) .

فقال العباس : الا الاذخر يارسول الله (والاذخر حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب) ، فانه لابد منه للقبور والبيوت . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم قال :

« الا الاذخر ، فانه حلال ، ولا وصية لوارث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، ولا يحل لامرأة ان تعطى من مالها الا باذن زوجها ، والمسلم اخوالمسلم ، والمسلمون اخوة ، يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد عليهم أقصاهم ،

ولا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث الا مع ذى محرم ، ولا صلاة بعد العصر ، ولا بعد الصبح ، وأنهاكم عن صيام يومين : يوم الاضحى ويوم الفطر » (١) .

***

وفى وسط هذا الجمع الحاشد ، والموقف المشهود، نادى النبى صلى الله عليه وسلم على عثمان بن طلحة .

ولعل عثمان قد تذكر هنا يوما مر عليه فى جاهليته ، وكان يحرس الكعبة ومعه مفتاحها ، فأقبل الرسول عليه الصلاة والسلام ليطوف ، وكأنه يريد أن يدخل الكعبة ، فأبى عثمان واغلظ مع الرسول المعاملة ، فقال له النبى : يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح بيدى يوما أضعه حيث شئت .

فقال عثمان وهو ما زال فى ظلمات الجاهلية : لقد هلكت قريش اذن وذلت .

فرد عليه الرسول قائلا : بل عمرت وعزت .

وخشى عثمان حين سمع النداء أن يحاسبه الرسول أو يعاتبه على ذلك ، وقد أصبح السيد المطاع .

ولكن الرسول أحسن استقباله حين اقبل عليه ، وحدث فى ذلك الموقف أن رجا العباس بن عبد المطلب أن يعطيه الرسول مفتاح الكعبة فأبى ، ورجا على بن أبى طالب أن يعطيه النبى المفتاح فأبى .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، ج ٥ ص ١٩٨ . طبعة بيروت .

واعطى النبى عليه الصلاة والسلام المفتاح لعثمان قائلا : « خذوها يابنى طلحة خالدة تالدة ، لاينزعها منكم الا ظالم ، يا عثمان ، أن الله استأمنكم على بيته فكلوا بالمعروف »

وفى هذا الامر نزل قول الله تبارك وتعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، أن الله نعما يعظكم به ، ان الله كان سميعا بصيرا » .

وأخذ عثمان المفتاح ، وهو لا يكاد يصدق عينيه ، ولعله كان ما يزال يفكر فى موقفه يوم أغلظ للنبى المعاملة

وانصرف عثمان ، ولكن الرسول عاد فناداه ، فلما دنا منه قال له بصوت رقيق : ألم يكن الذى قلت لك يا عثمان ؟ فرد عليه عثمان وهو يكاد يذوب خجلا : بلى ، اشهد أنك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ولقد اجتهد عثمان بن طلحة رضوان الله تعالى عليه، كى يعوض وهو فى الاسلام ما فاته وهو فى الجاهلية ، فأوسع خطاه فى الطاعة والعمل الصالح ، وجاهد فى سبيل الله بما استطاع ، وبسط الله له فى عمره ، فانتفع به فى العمل ابتغاء وجه الله ، وروى عن رسول الله ما روى من حديث الخير والعلم ، ثم لحق بربه عام اثنين وأربعين للهجرة ، يروى انه مات بمكة ، وقيل انه مات فى معركة اجنادين ، وجاء عنه فى الاصابة : « ثم سكن المدينة الى أن مات بها سنة ثنتين واربعين ، قاله الواقدى ، وابن البرقى ، وقيل : استشهد بأجنادين . قال العسكرى : وهو باطل »

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

المجاهد على الدوام

مسلمة بن عبد الملك بن مروان الأموي

روى الامام البخارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «جعل رزقى تحت ظل رمحى» . والنفس تفهم من هذا الحديث الكريم معنى ترجو أن يكون صوابا من الله ، والا فالخطأ منها ومن الشيطان ... أن الحق لابد له من قوة تحرسه وتصونه، والا ضاع تحت جبروت الباطل ، والعامة تقول : « المال السائب يعلم السرقة » ، وكذلك قيل : « من لم يتذأب أكلته الذئاب » .

فرزق المسلم ـ وهو يتمثل فى داره وعقاره ، وسكنه ووطنه ، وزرعه وضرعه ، وكل ما يحوزه ويملكه ـ يجب أن يكون محروسا بعدته وعتاده ، مستظلا بسلاحه ورماحه ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وليست الحرب فى الاسلام غاية مقصودة لذاتها ، ولكنها خطة يدفع اليها بغى الباغين وظلم الظالمين ، ولذلك قال التنزيل المجيد : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، أن الله لايحب المعتدين» . وقال أيضا : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ، واعلموا ان الله مع المتقين»

وصيانة الحق والرزق تستلزم أن يكون أبناء الاسلام دائما على اعداد واستعداد ، وأن تكون طائفة منهم على الدوام فى حالة رباط ، أو على أرض الميدان، حتى يظل الجهاد فريضة قائمة باقية ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين مجد شأن المؤمن المجاهد الموصول النضال ، فقال : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار اليها » .

***

وهذا واحد من أبناء الاسلام ، وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، يظل أكثر من خمسين عاما يحمل سلاحه ، ويسدد رماحه ، ويذود عن حمى الدين ، ويصون حرمات المسلمين ، ويتقرب بالجهاد الى الله رب العالمين : انه البطل القائد الامير الفاتح أبو سعيد (١)

مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الاموى الدمشقى ، واليه تنسب جماعة « بنى مسلمة » التى كانت بلدتهم هي « الاشمونين » وفيها منازلهم ، وهى بلدة بالصعيد الاعلى فى مصر غربى نهر النيل .

وكان مسلمة بن عبد الملك من أبطال عصره ، بل من أبطال الاسلام المعدودين ، حتى كانوا يقولون عنه انه خالد بن الوليد الثانى ، لانه كان يشبه سيف الله المسلول ، فى شجاعته وكثرة معاركه وحروبه ، ويقول عنه المؤرخ يوسف بن تغرى بردى صاحب كتاب « النجوم الزاهرة » هذه العبارة : « كان شجاعا

---

(١) وقيل في كنيته أيضا : أبو الاصبغ ، وقيل : أبو شاكر . ويقال ان هذه كنية لابن أخيه مسلمة بن هشام بن عبد الملك « النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٨٩ » .

صاحب همة وعزيمة ، وله غزوات كثيرة » (١) .

ويقول عنه ابن كثير : « وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساع مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة، وقد افتتح حصونا وقلاعا ، وأحيا بعزمه قصورا وبقاعا ، وكان فى زمانه فى الغزوات نظير خالد بن الوليد فى أيامه ، فى كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوة عزمه، وشدة بأسه ، وجودة تصرفه فى نقضه وابرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة » (٢) . ويقول عنه صاحب العقد الفريد : « ولم يكن لعبد الملك ابن أسد رأيا ، ولا ازكى عقلا ، ولا أشجع قلبا ، ولا أسمح نفسا ، ولا اسخى كفا من مسلمة » (٣) .

ولذلك أوصى عبد الملك بن مروان أولاده ، وفيهم مسلمة ، فكان مما قاله لهم عنه : « يا بنى ، أخوكم مسلمة ، نابكم الذى تفترون عنه ، ومجنكم الذى تستجنون به ، أصدروا عن رأيه » (٤) .

ومع ان اخوة لمسلمة تولوا الخلافة دونه ، ظل هو بينهم النجم المتألق الثاقب بجهاده وكفاحه ، وقال عنه مؤرخ الاسلام الذهبى : « كان مسلمة أولى بالخلافة من اخوته » . وليست العبرة بالمناصب والمراتب ، ولكنها بالارادة ، والعزيمة ، والاقدام ، وعمق التفكير، وحسن الخلق .

وكانوا يلقبون مسلمة بلقب « الجرادة الصفراء » ، لأنه كان متحليا بالشجاعة والاقدام، مع الرأى والدهاء .

(١) المرجع السابق .
(٢) البداية والنهاية ، ج ١ ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .
(٣) العقد الفريد ، ج ٧ ص ١٤٥ .
(٤) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ص ١٦١ .

ومع انه تولى امارة اذربيجان وارمينية أكثر من مرة وامارة العراقين (١) ، ظل يواصل الجهاد ، ويتابع المعارك، منذ تولى والده الخلافة سنةخمس وستين (٢) وظل مسلمة على هذه الروح البطولية حتى لحق بربه سنة احدى وعشرين ومئة .

لقد كانت له سلسلة طويلة من المعارك والنزوات

ارايت ؟ .. انها سلسلة طويلة من المعارك والغزوات والحروب ، وانها لسلسلة كثيرة الحلقات . وكأنما نذر مسلمة نفسه للجهاد والقتال ، واتخذ مسكنه فى ساحات الكفاح والنضال ، ومع ذلك كان عالما محدثا ، روى الحديث عن خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز، وروى عنه الاحاديث جماعة منهم : عبد الملك بن أبى عثمان ، وعبد الله بن قرعة ، وعيينة والد سفيان بن عيينة ، وابن أبى عمران ، ومعاوية بن خديج ، ويحيى بن يحيى الغسانى (٢) .

ويظهر ان اتصال مسلمة بن عبد الملك بالحاكم العادل المخلص الامين ، خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان من أقوى الاسباب فى تكوين شخصية مسلمة تكوينا باهرا رائعا ، لانى أومن بأن عمر بن عبد العزيز كان رجلا تتمثل فيه نفحات الهية من الخير والبر والتوفيق، وان الذين اتصلوا به واخذوا عنه واقتبسوا منه هداهم الله، ووهبهم توفيقا ورشادا . ولعل مسلمة قد عبر عن شيء من هذا القبيل حينما دخل على عمر بن عبد العزيز وهو فى ساعته الاخيرة فقال له فى تأثر عميق بليغ : جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا خيرا ، فقد ألنت

---

(١) العبر ، ج ١ ص ١٥٤ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٣٢٨ .

لنا قلوبا كانت قاسية ، وجعلت لنا فى الصالحين ذكرا (١) .

وهذه عبارة تدل على ان ملامح من شخصية مسلمة كان الفضل فيها لخامس الراشدين رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ومن المواقف الخالدة الباقية بين مسلمة وعمر ما رواه ابن عبد ربه ، وهو ان مسلمة بن عبد الملك ، دخل على عمر بن عبد العزيز فى المرض الذى مات فيه، فقال له : يا أمير المؤمنين ، انك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولابد لهم من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم الى أو الى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم ان شاء الله .

فقال عمر : أجلسونى ، فأجلسوه ، فقال :

الحمد لله ، أبالله تخوفنى يا مسلمة ؟ أما ما ذكرت انى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال وتركتهم عالة، فانى لم أمنعهم حقا هو لهم ، ولم أعطهم حقا هولغيرهم . وأما ما سألت من الوصاة اليك أو الى نظرائك من أهل بيتى ، فان وصيتى بهم الى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وانما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره يسرا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لى بنى ، فدعوهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما ، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه ، حتى أفرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال :

بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم . يا بنى ، انى قد تركتكم من الله بخير ، انكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد الا ولكم عليه حق واجب ان شاء الله . يابنى،

---

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ص ١٨٣ .

ميلت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا الى آخر الابد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا النار . قوموا يابنى عصمكم الله ورزقكم .

فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر (١) .

***

وكان مسلمة يظهر نعمة الله تعالى ، ومن شواهد ذلك انه دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه ريطة من رياط مصر (أى ثوب رقيق ناعم) . فقال له عمر : بكم أخذت هذا يا أبا سعيد ؟ ..

أجاب مسلمة : بكذا وكذا .

قال عمر : فلو نقصت من ثمنها ما كان ناقصا من شرفك .

فأجاب مسلمة : ان أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجدة ، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة ، وأفضل اليد ما كان بعد الولاية (٢) .

ولقدكان مسلمة رجلا معطاء ، ولقد قال يوما لنصيب الشاعر: سلني. قال : لا. قال : ولم ! قال نصيب : لان كفك بالجزيل أكثر من مسألتى باللسان .

وكان مسلمة مع تقواه وحرصه على الصلاة رجلا يحب العفو ويحبب فيه ، ولقد حدث بين الخليفة هشام بن عبد الملك وبين ابن هبيرة ما دعا الى اهدار دمه . ولكن خادما لمسلمة يحدثنا فيقول :

كان مسلمة بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح ، فيدخل على أمير المؤمنين ، فانى لأصب الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ ، اذ

(١) العقد الفريد ، ج ٥ ص ٢٠٣ .
(٢) العقد الفريد ، ج ٥ ص ١٩٨ .

صاح صائح من وراء الرواق : أنا بالله وبالامير !

فقال مسلمة (فى دهشة) : صوت ابن هبيرة ، اخرج اليه .

فخرجت اليه ورجعت فأخبرته ، فقال : أدخله ، فدخل ، فاذا رجل يميد نعاسا ، فقال : أنا بالله وبالامير .

قال : أنا بالله ، وأنت بالله .

ثم قال : أنا بالله ، وأنا بالامير .

قال مسلمة : أنا بالله ، وأنت بالله .

حتى قالها ثلاثا ، ثم قال : أنا بالله . فسكت عنه ، ثم قال لى : انطلق به فوضئه وليصل ، ثم اعرض عليه أحب الطعام اليه فأته به ، وافرش له فى تلك الصفة — لصفة بين يدى بيوت النساء — ولا توقظه حتى يقوم متى قام .

فانطلقت به فتوضأ ، وصلى ، وعرضت عليه الطعام فقال : شربة سويق ، فشرب ، وفرشت له فنام ، وجئت الى مسلمة فأعلمته ، فغدا الى هشام فجلس عنده ، حتى اذا حان قيامه قال : يا أمير المؤمنين ، لى حاجة . قال هشام : قضيت ، الا أن تكون فى ابن هبيرة . قال مسلمة : رضيت يا أمير المؤمنين .

ثم قام مسلمة منصرفا ، حتى اذا كاد أن يخرج من الديوان رجع فقال : يا أمير المؤمنين ، ما عودتنى أن تستثنى فى حاجة من حوائجى ، وانى أكره أن يتحدث الناس انك أحدثت على الاستثناء .

قال هشام : لا أستثنى عليك .

قال مسلمة : فهو ابن هبيرة .

فعفا عنه هشام (١) !

---

(١) العقد الفريد ، ج ٢ ص ٥٧ و ٥٨ .

ومن ملامح شخصية مسلمة انه كان يعرف للفصحى مكانتها ، وللبيان السليم منزلته ، وكان يقول : «اللحن فى الـكلام أقبح من الجدرى فى الوجه » (١) . وكان يقول أيضا : « مروءتان ظاهرتان : الرياسـة والفصاحة » (٢) .

ومن كلماته قوله : « ما أخذت امرا قط بحزم فلمت نفسى فيه ، وان كانت العاقبة على ، ولا أخـذت أمرا قط ، وضيعت الحزم فيه ، فحمدت نفسى وان كانت لى العاقبة » (٣) .

وكان مسلمة يحب أهـل الادب ، وأوصى لهم بثلث ماله ، وقال : انها صنعة جحف أهلها (٤) ، اى سلبهم الناس حقهم .

وكذلك كان يعرف للشعراء مكانتهم وحقهم ، ولقد تحدث كثير عزة فقال : شخصت انا والاحوص ونصيب الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة واخاء قديم ، ونحن لا نشك ان سيشركنا فى خلافته ، فلما رفعت لنا أعلام خناصرة (٥) لقينـا مسلمة بن عبد الملك ، وهو يومئذ فتى العرب ، فسلمنا فرد ، ثم قال : أما بلغكم ان امامكم لا يقبل الشعر ؟ قلنا : ما توضح الينا خبر حتى انتهينا اليك . ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا .

فقال : ان يكن ذو دين بنى مروان قد ولى وخشيتم جرمانه ، فان ذا دنيـانا قد بقى ، ولـكم عنـدى ما

---

(١) عيون الاخبار ، ج ٢ ص ١٥٨ .
(٢) عيون الاخبار ، ج ١ ص ٢٩٦ .
(٣) العقد الفريد ، ج ١ ص ٢٩٤ .
(٤) البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٣٢٩ .
(٥) خناصرة : بلدة من اعمال حلب .

تحبون ، وما ألبث حتى أرجع اليكم ، وأمنحكم ما أنتم أهله .

فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل عليه (١).

وكان مسلمة يعرف للعلماء كذلك أقدارهم ويهدى اليهم ، وكان يهدى الى الحسن البصرى ، وأهدى اليه ذات مرة خميصة لها اعلام ، فكان الحسن يصلى فيها (٢) .

وكان يتقدم بالنصيحة فى مواطنها ، ولقد لاحظ على أخيه يزيد بن عبد الملك نوعا من اللهو وهو فى الخلافة، فنصحه وذكره بسيرة عمر بن عبد العزيز وقال له فيما قال : « انما مات عمر أمس ، وقد كان من عدله ما قد علمت ، فينبغى أن تظهر للناس العدل ، وترفض هذا اللهو ، فقد اقتدى بك عمالك فى سائر أفعالك وسيرتك » (٣) .

ومن أروع المشاهد المأثورة المذكورة فى سيرة البطل الفاتح ، مسلمة بن عبد الملك ، والتى يجب أن نطيل فيها التأمل والاعتبار ، ان كنا من أصحاب القلوب والابصار ، ان مسلمة كان يحاصر ذات يوم حصنا ، وما أكثر الحصون التى حاصرها ، وما أكثر الحصون التى افتتحها باسم الاسلام والمسلمين ... واستعصى فتح الحصن على الجنود ، فوقف مسلمة يخطب بينهم ويقول لهم ما معناه : أما فيكم أحد يقدم فيحدث لنا نقبا فى هذا الحصن ؟ ..

(١) العقد الفريد ، ج ١ ص ٣١٤ .
(٢) العقد الفريد ، ج ١ ص ٢١١ . والخميصة ثوب من الخز .
(٣) مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٩٦ .

وبعد قليل تقدم جندى ملثم ، والقى بنفسه على الحصن ، واحتمل ما احتمل من أخطار وآلام ، حتى أحدث فى الحصن نقبا كان سببا فى فتح المسلمين له ، وعقب ذلك نادى مسلمة فى جنوده قائلا : أين صاحب النقب ؟ .. فلم يجبه أحد ، فقال مسلمة : عزمت على صاحب النقب أن يأتى للقائد ، وقد أمرت الآذن بادخاله على ساعة مجيئه .

وبعد حين أقبل نحو الآذن شخص ملثم ، وقال له : استأذن لى على الامير . فقال له : أأنت صاحب النقب؟

فأجاب : أنا أخبركم عنه ، وأدلكم عليه ، فأدخله الآذن على مسلمة ، فقال الجندى الملثم للقائد : ان صاحب النقب يشترط عليكم أمورا ثلاثة : الا تبعثوا باسمه فى صحيفة الى الخليفة ، والا تأمروا له بشىء جزاء ما صنع ، والا تسألوه من هو ، فقال مسلمة : له ذلك ، فأين هو ؟.. فأجاب الجندى فى تواضع واستحياء : أنا صاحب النقب أيها الامير . ثم سارع بالخروج .

فكان مسلمة بعد ذلك لا يصلى صلاة الا قال فى دعائها : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب يوم القيامة (١)

وبعد ما يزيد عن نصف قرن من الزمان قضاها مسلمة بن عبد الملك فى قتال ونضال ، وكفاح وحمل سلاح ، مضى الى ربه سنة احدى وعشرين ومئة ، لينال ثوابه مع أهل التقوى وأهل المغفرة : « ان المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .
وهو الذى سأله أخوه هشام : هل دخلك ذعر قط لحرب

(١) عيون الاخبار ، ج ١ ص ١٧٢ .

أو عدو ؟.. فقال : ما سلمت فى ذلك من ذعر ينبهه على حيلة ، ولم يغشنى ذعر سلبنى رأيى. فقال هشام : هذه والله البسالة (١) .

توفى مسلمة يوم الاربعاء لسبع مضين من المحرم سنة احدى وعشرين ومئة ، فى موضع يقال له الحانوت ، وقيل سنة عشرين ومائة. وقيل سنة ثنتين وعشرين ومئة.

ومن العجيب ان صاحب « النجوم الزاهرة » ذكر خبرين عن وفاته .. فذكر أولا أنه مات سنة عشرين ومئة ، ثم عاد بعد قليل فذكر انه مات سنة ثنتين وعشرين ومئة ، ولكن القول الاول أصح (٢) .

ولقد رثى الوليد بن يزيد بن عبد الملك عمه البطل مسلمة بن عبد الملك فقال فى رثائه هذه الابيات :

أقول ـ وما البعد الا الردى ـ :
أمسلم ، لا تبعدن ، مسلمه
فقد كنت نورا لنا فى البلاد
مضيئا ، فقد أصبحت مظلمه
ونكتم موتك نخشى اليقين
فأبدى اليقين لنا الجمجمه !

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) العقد الفريد ، ج ١ ص ٨٢ .
(٢) انظر البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٣٢٩ . والعبر ، ج ١ ص ١٥٤ . والاعلام ، ج ٨ ص ١٢٢ . والنجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٨٥ ثم ص ٢٨٨ .

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٢
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.

هذا الكتاب

« بين الوفاء والفداء » صلة عميقة وثيقة ، ترمز الى ارتباط المبدأ بتطبيقه . وتصور العلاقات القائمة بين الفكرة وتنفيذها .

فالوفاء هو احد المثل العليا التي تدين بها الانسانية المؤمنة النبيلة ، والفداء هو التطبيق الحي ، والتصديق العملي لذلك المثل الرفيع .

والامة التي تريد الحياة الشريفة ، والبقاء الكريم ، بحاجة دائمة الى عنصرى الوفاء والفداء .

وفي تراثنا الاسلامي صفحات مجهولة لدى الكثيرين تنطوى على مواقف باهرة ، لابطال تألقوا في ميدان الوفاء والفداء ، ولكنهم ظلوا بحاجة الى التعريف والانصاف ، وظلت الامة بحاجة الى أن تعرف عنهم ، وتعرف لهم ، وتغترف منهم ، لتأخذ زادها الذي يشد سواعدها في مواقف النبل ومواطن الاقدام .

وقد اراد فضيلة الدكتور احمد الشرباصي ، بتصوير الاديب ، وتحقيق العالم ، وروح الداعية ان ينفض غبار السنين ، عن نماذج لبطولات مجهولة ، لها قدم صدق وسبق ، في فضيلة الوفاء ومكرمة الفداء ، فجاء هذا الكتاب انصافا لمهضومين وزادا للطالبين .

الناشر